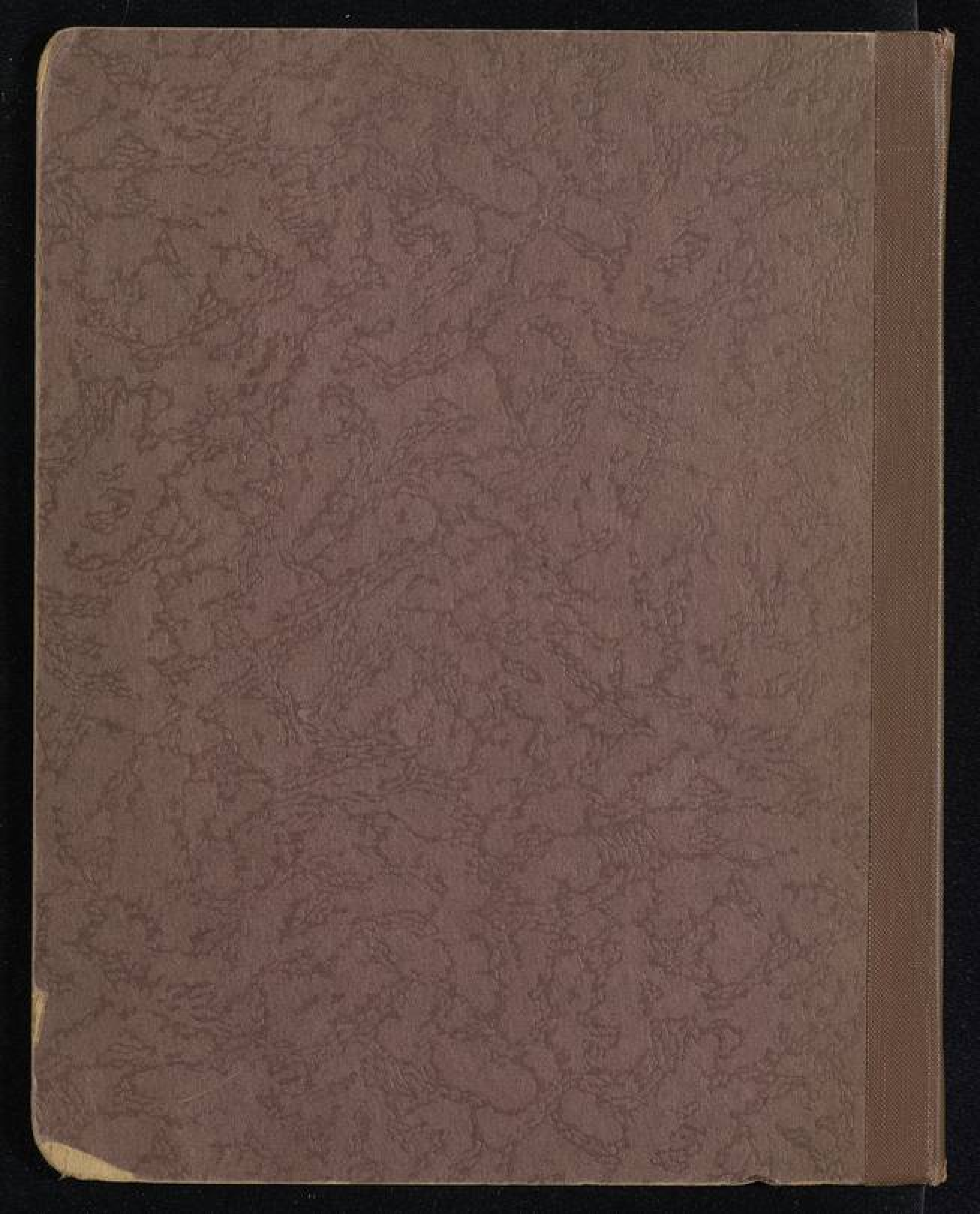
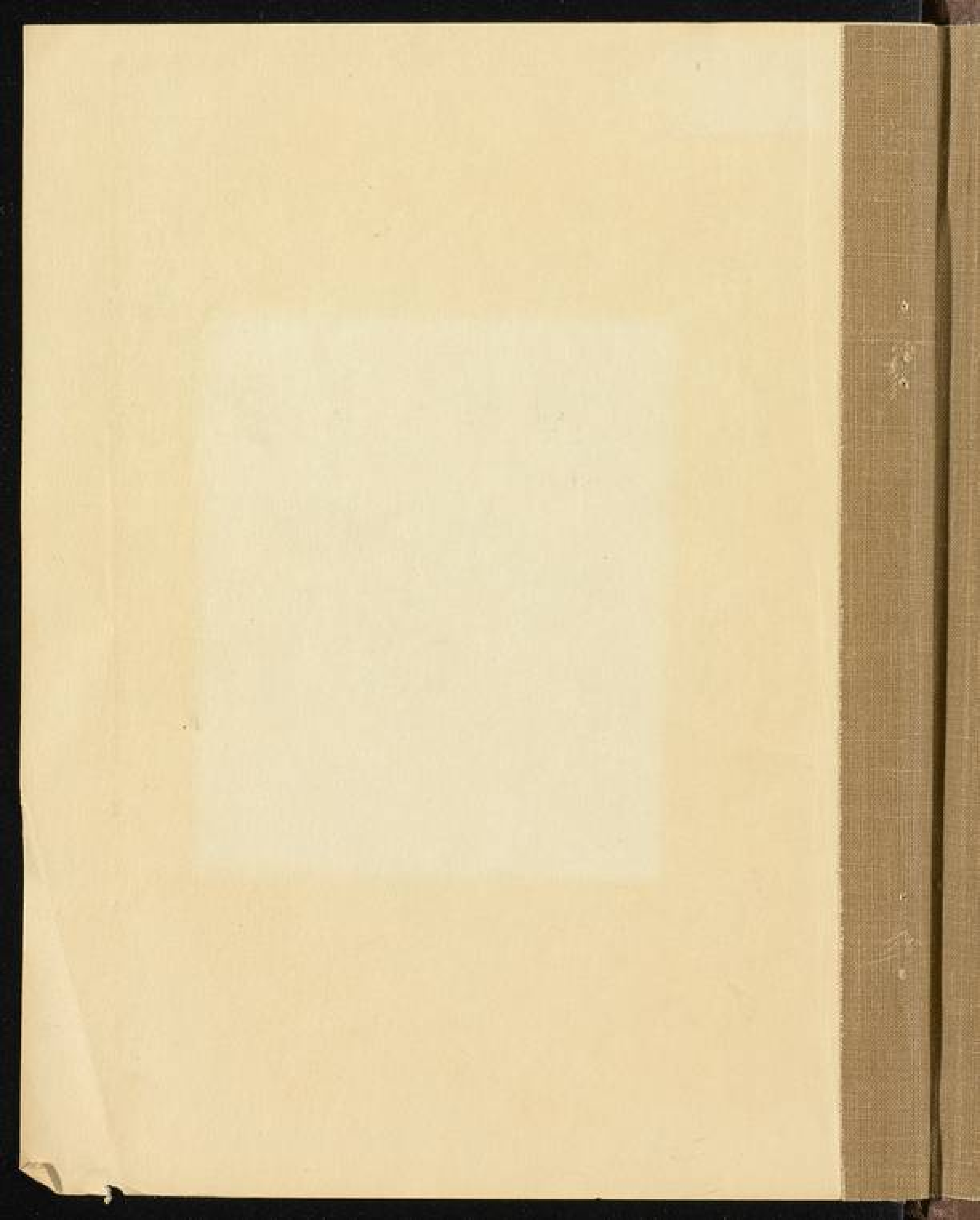
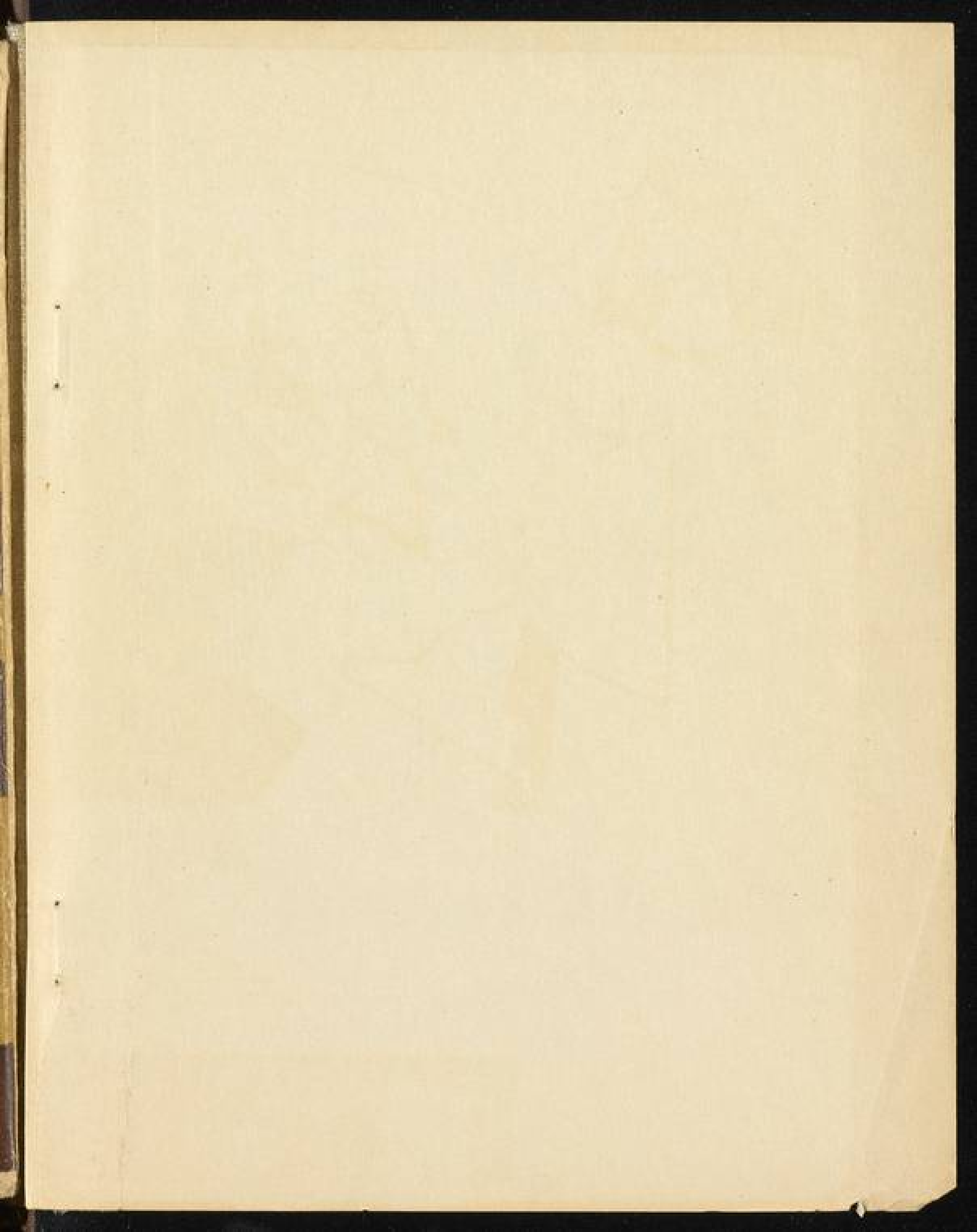



Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.


SIGILLVM · COLLEGII · COLVMBIAE · NOVI · EBORACI






A 31
مكتوب على الجبين
محمود تيمور

According to NYPL
الطبعة الثانية ١٩٤٧

كان في غابر الزمان

كان يحكم «مصر» فى غابر الزمان فرعون عظيم يدعى « أمينوفيس » يؤازره فى تدبير شؤون المملكة رئيس كهنته الجليل « رحيو » وهما يقيمان معا فى « منف » الجميلة حاضرة الدولة ، وأزهى مدينة مرفوعة الذكر فى ذلك الوقت . الأول يسكن قصره المنيف المطل على النيل ، بحدائقه المظللة بالنخيل ، والآخر يقيم فى معبده الشامخ ذى الأعمدة الضخمة ، والأبهاء الرحبة الزاخرة بتماثيل الأرباب ..

وكان لهذا الكاهن صديق من الفنانين اسمه « تايا » ، وهو رجل شاذ الطباع ، لا يؤمن بمعتقدات عصره ، له قامة مستوية ، ووجه نحيف يفيض بالبشاشة ، وعينان حالمتان بعيدتا الغور ، وقد اتخذ له بيتا منعزلا فى ضاحية المدينة ، حيث يحيط به خضم الصحراء العظيم ، لا يساكنه فيه الا مربيته العجوز « ميريس » التى تقوم على خدمته

و «تايا» هذا أكبر مثال فى «مصر» يتولى امداد المعابد بتماثيله الرائعة، يشتغل بنحتها فى قلب الجبل ، فيمكث فيه الشهور الطوال منفردا لا يؤنسه غير ازميله ، مستعذبا ما يسمع من ضرباته الرنانة على الحجر الصلد ، كأنها توقيع موسيقى على أوتار قيثار !

ولم يكن الناس يخفون تعجبهم من « تايا » الذى يخدم الدين ، على

الرغم من الحاده ، أصدق خدمة بما يصنع من بدرع التماثيل . . . فاذا سأل أحدهم رئيس الكهنة : لم يصادق هذا الملحد العنيد ؟ وكيف يقبل منه تماثيل يزين بها معابد المؤمنين؟ أجاب «رحيو» بصوته الهادى الرزين:

ان من ينحت هذه التماثيل ، فى ذلك الفن الرائع ، لا يمكن أن يكون ملحدا . . . ان الايمان كامن فى قلبه كمون الحياة فى حبة القمح !

ظل « تايا » يقضى الأزمنة المديدة رهين المحاجر يعمل للفن ، فاذا أنجز تمثاله أعلم « رحيو » بذلك ، فأرسل له الكاهن الزحافات تجرها الثيران ، مصحوبة بالعمال الأشداء ، فيأخذون فى نقل التمثال من مكانه، ويسيرون به فى موكب حافل : « تايا » خلف التمثال يسير مزهوا ، والعمال حواليه يسوقون الثيران ويعينونها على الجر ، وهم يغنون . . .

فاذا ما أشرف الموكب على أطراف المدينة ، خرج لاستقبالهم «رحيو» مع الكهان والجند والأهلين ، وسار الجمع ركبا واحدا يحيطون بالتمثال احاطة الشعب بالقائد المنتصر . . . الكهنة فى المقدمة يرتلون أدعيتهم فى خشوع ، والجند على جانبيه يشرعون الرماح ، والناس خلفه ينشدون الأهازيج ويتصايحون !

ويقف « تايا » يراقب الموكب ، وقد جعل يديه الى صدره ، ووجهه يتألق بشرا . فاذا بدأت صفوف النخيل تغيب فى أنحائها الموكب العظيم، ابتسم الفنان ابتسامة رحيبة ، وانعطف الى طريق بيته ، وسار فيه مرحا يصفر بفمه

ثم يدخل داره مناديا « ميريس » مربيته العجوز ، فتهرع لاستقباله، خفاقة القلب من الفرح ، فيعتنقها « تايا » قائلا :

يا لله !.. انك لتزدادين حسنا يا ميريس . . . لم أعد أحتمل كل هذا الاغراء !

فتنثنى العجوز ضاحكة ، ويقول « تايا » :

والآن ، أين نبيذك الفاخر ، أيتها الساقية المحبوبة ؟ أين هو ؟ ان

الصحراء قد جففت حلقي حتى غدا في صلابة الخشب . يخيل الى أنه قد مرت على عصور بأكملها لم أذق فيها طعم هذا الشراب .. على به ، أسرعى !

فتحضر له «ميريس» قنينة النبيذ ، فيرفعها « تايا » الى فمه ، ولا يضعها الا فارغة

لم تكن حياة « تايا » في المحاجر الا حياة عمل ونشاط مقرونين بتقشف وشظف ... ولكنه حين يتم عمله ، ويعود الى المدينة ، ويستقر في بيته ، يبدأ عيشة جديدة : عيشة بوهيمي يحيا ليومه ، غير معنى بما يأتي به غده، فيقضي لياليه مع رهط من أصدقائه وصويحباته في مسامرة ومنادمة ومخاصرة ، حتى اذا طلع الفجر عاد الى داره ، وارتمى على فراشه بلا حراك، فلا يستيقظ الا في الظهيرة... واذا دنا وقت الأصيل، خرج أمام داره مصطحبا مزماره ، وأخذ يداعبه هازلا مرة وجادا أخرى !

ويزوره بعض أصدقائه ، فيتبادلون الحديث مليا ، فان انساق الحوار الى شأن ديني ، ضج « تايا » بضحكة طويلة ، وقال :

أيها الأغبياء المساكين !.. أما زلتم تحنون رؤوسكم لأصنام نحتها لكم بيدى هاتين ؟.. فلم لا تحنون الرؤوس لى ، وتتخذونني من دونها ربا ؟!

كذلك عاش « تايا » ... لم يستهوه من الحياة الا جانبها المادى الصاخب

*

وألم به ذات ليلة فتور ، فاعتزم أن يعتكف في منزله ، يستمع الى خرافات « ميريس » ويستعيد معها أحلام الطفولة اللاهية

ولكن الليلة كانت مقمرة ، و « تايا » مفتون بالقمر ، لا يشبع من النظر اليه ، ولا يمل التجوال في الربوع المغمورة بنوره . وكان يقول

دائما ل « ميريس » وهو ناظر الى ذلك الرفيق العلوى :

ميريس ! انى لأشعر برغبة ملحة فى الخروج الى هذا الخضم العظيم، متجردا أرمى بنفسى فيه ، فأحس لججه تصارع جسدى !

وحاول « تايا » ألا يبرح منزله فى تلك الليلة ، الا أن اغراء القمر لم يدع له رأيا . . .

وخرج ملتحفا برداء خفيف، وسار فى الضوء الفضى لا يعرف لقدميه وجهة . . . سار يتنفس تنفسا عميقا ، يتلفت حوله ويغنى ، ويعجبه غناؤه فيصيح صياح الطرب ويعيد !

وتابع سيره ، حتى أقبل على النيل ، فى بقعة بعيدة عن العمران ، بها حقل من النخيل

وكانت الرمال تظهر فى ضوء القمر بهيجة ناصعة ، والأحجار المنثورة هنا وهناك تلتمع التماع الجوهر

استند « تايا » الى جذع شجرة يستريح ، وقضى الوقت صامتا ، يروى عينه العطشى من ذلك النبع الفياض . وبينما هو فى نشوة أشبه بنشوة الأحلام ، اذ رأى شبحا يسرى خلال النخيل ، فلبث يفكر : أيكون انسانا مثله خرج يستمتع بجمال الطبيعة فى ضوء القمر ؟ أم هو ظبى حذر يسعى الى النهر لينهل ؟ ليشرب

وجعل « تايا » يراقب الشبح ، وهو يقترب منه رويدا رويدا ، فوضحت له انسانة تسير فى خفة الطير ، عليها شبه عباءة حريرية يتمايل بها الهواء على جسدها ، وشعرها المتناثر خلفها يجاهد فى اللحاق بها كأنما يخشى أن يتخلف !

ووقف « تايا » يتأملها خلف نخلة ضخمة ، فمرت به كما تمر نفحة النسيم ، وخيل اليه أنه لم يسمع لها صوتا ، لا حفيف ثوب ، ولا خفق قدم ، ولا تردد أنفاس !..

من تكون ؟ أآدمية هى من لحم ودم ، أم طيف من عالم الروح ؟!

ودلف وراءها يتأثر خطاها بما تتركه فى طريقها من عطر هيهات أن تخطئه حاسة الشم !..

وكذلك ظل يتأثرها ، حتى دنت من النهر ، فوقفت تنظر طروبا الى صفحته ، تتموج عليها أشعة القمر ، ثم راحت تبسط ذراعيها بقوة وتجمعهما الى صدرها ، كأنها تحتضن الهواء !

كانت كلها بهجة وفتنة وحياة ... و « تايا » لم يصادف ذلك كله مجتمعا فى آدمية قبل أن يراها الآن !

ومشت على حافة النهر ، فتبعها ، ثم استدارت ترجع أدراجها فاذا بها أمامه وجها لوجه .. فألفى « تايا » نفسه يركع أمامها خاشعا ، كما كان يركع قديما وهو طفل أمام تمثال الربة « ايزيس » !

لم يسمعها تصيح مذعورة ، ولم يرها تجفل خائفة ... كان وحده هو الخائف المذعور !

وخشى - بينه وبين نفسه - أن يكون قد أساء اليها . كيف أباح لنفسه أن يتجسس عليها ، ويقتفى خطواتها ؟.. فغمغم يطلب منها الصفح والغفران ... وسمعها تجيبه فى صوت كأنه الهمس :

انهض يا « تايا » !

فنظر اليها مرتجفا ، وقال :

أتعرفينني ؟

- من يجهل « تايا » العظيم ؟

- سيدتى ...

- انى سعيدة برؤيتك ... انهض ، وتعال حدثنى عن نفسك : كيف تحيا بين المحاجر ، وكيف تصوغ من الصوان أربابا عظاما يأتون للناس بالمعجزات ؟..

- أيهمك أمرى ؟

- ان حياتك أسطورة رائعة ، فيها بطولة وأسرار

ومدت له يديها ، فتعلق بهما ونهض ، وسارا بخطوات متمهلة على شاطىء النيل . وأخذ « تايا » يحدثها عن حياته بين المحاجر ، قائلا :

لقد نحت لى فى الصخور مرقدا أفرشه بالهشيم ، وانى لآخذ معى زادى ، فأجهز بيدى طعام اليوم : طعاما ساذجا طيبا آكله هانئا . أما الماء فأستقيه مما فى المنطقة حولى من الآبار الغائرة . . .

ـ هذه الآبار يا « تايا » شقتها لك الآلهة ، لتعينك بها على عملك الشاق !

فنظر اليها وابتسم ، وطالت نظرته ، ولكن ابتسامته سرعان ما ذهبت مترقرقة على صفحة وجهه . . . وتابع حديثه :

لقد اتخذت لى ظلة فسيحة من سعف النخيل ، وأوراق البردى ، أقمتها على أعمدة من أنقاض معبد مهدم ، فغدت كأنها هيكل صالح للتعبد

ـ وهل تعمل فى رائعة النهار ؟

ـ نعم ، ولكن أفضل ضوء القمر . . . ولو كان ذلك المعبود الجميل يزورنى هناك كل ليلة ، لاستبدلته بأشعة الشمس ، ولقمت الليل ساهرا أنحت تماثيلى !

ـ ما أحلى حياتك يا « تايا » . . . حقا انك لمحظوظ !

فنظر اليها ونظرت اليه ، وكان ينبعث من عينيها نور ألاق هادىء ، أحسه « تايا » ينسكب فى عينيه ، وينفذ الى قلبه ، فيضىء جوانبه ثم يشيع فى سائر جسده . . .

وأمسك بيديها ، ورفعهما فى هدوء الى فمه ، ثم أخذ يقبلهما ، واحتوته نشوة لم يعرف معها على أية حال انتهت هذه القبلة ؟!

ورفع رأسه اليها ، وقال وهو لا يكاد يفطن الى وجوده :

سيدتى . . . ان لى مطلبا ، فهل تحققينه لى ؟

ـ وما هو يا « تايا » ؟

ـ أرغب فى أن أنحت تمثالا لايزيس ، ربة الأرباب ، فهل تقبلين أن تساعديني على عمله ؟

ـ وماذا تريد منى أن أفعل ؟

ـ أن تكونى النموذج الذى أصنع على غراره تمثالى . . .

فابتسمت ، ثم قالت :

وهل يطول أمد عملك ؟

ـ لن يطول أكثر من عمر هذا المعبود !

وأشار الى القمر ، ثم تابع حديثه :

سأكتفى فى البدء بصنع تمثال مصغر ، ثم أنحت على صورته التمثال الكبير فى مسكنى البعيد بين المحاجر . . .

ـ ومتى نبدأ ؟

ـ غدا . . .

ـ وأين ؟

ـ هنا ، حيث تم لقاؤنا ، حينما يلوح القمر !

*

وعاد « تايا » الى داره ، وهو يسائل نفسه فى هـذه الحسناء : من تكون ؟ لقد عرفت اسمه ، وعلمت من أمره ما فيه غناء . أما هو فلا يدرى من شأنها كثيرا ولا قليلا !

ترى من تكون ؟ أآدمية هى ؟ أم طيف من عالم الروح ؟

وتمدد « تايا » على فراشه ، يطلب النوم ، ولكنه ظل نافر الجفنين . . . وطالت يقظته ، فاستدعى « ميريس » وقال لها وهو يرسل بصره فى سقف الحجرة :

ميريس . . . أيتها الأم الطيبة القلب ، اجلسى بالقرب منى ، ولا تبرحى مكانك حتى أنام . . .

ـ ما بك يا تايا العزيز ؟

ـ بى شىء يقلقنى ويعيينى ، لا أكتنهه ، ولا أستطيع التعبير عنه . . . أشعور شوق وحنين هو ؟ أم شعور ندم واستغفار؟ ولمن أحن وأتشوق؟ وعلام أستغفر وأندم ؟ . . أحس يا ميريس فراغا عظيما فى قلبى كفراغ المعبد اذا هجره المصلون . . . هاتى يدك ، أريد أن أتيقن وجودك !

ـ أراك ترجف ، فهل أنت مقرور ؟ وهل لك فى جرعة من الخمر؟!

ـ كلا ، كلا . . .

وارتمى « تايا » على صـــدر « ميريس » واندفع يبكى فى حرارة ، فضمته المرأة الى صدرها ، كما كانت تضمه فى عهد طفولته ، وجعلت تربت ظهره ، وتلاطف شعره الغزير . . .

وما ان انقطعت عن « تايا » نوبة بكائه ، حتى دهمه تخاذل شديد ، فأرقدته « ميريس » على فراشه ، ثم طفقت تنشد له نشيد « ايزيس » فى صوت حنون ، ذلك النشيد الذى طالما أنشدته اياه فى ابان الطفولة . فأشرق وجه « تايا » بابتسامة رقيقة ، وشد على يدها ، ثم غلبه الكرى فراح فى دنيا الأحلام . . .

وحينما استيقظ فى الصباح ، وثب من فراشه ، كعادته ، وخرج الى الباب يستنشق النسيم ، وبدأت حوادث المساء تسترجع رويدا مكانها من ذاكرته ، فاستند الى الحائط ، وجعل يتأملها . . .

ثم هرع الى « ميريس » وكانت تجهز له الفطور ، وقال لها :

خبرينى يا ميريس . . . أغادرت المنزل فى الليل ؟

ـ نعم يا سيدى غادرته !

ـ والى أين ذهبت ؟

ـ لقد رأيتك تتنزه فى ضوء القمر . . .

ـ وأى طريق سرت فيه ؟

ـ يلوح لى أنه الطريق المفضى الى النهر . . .

ـ يلوح لك ؟

فابتسمت « ميريس » وقالت :

لم أذهب معك يا « تايا » . . . أريد أن تخبرنى : هل أنت اليوم أحسن حالا ؟

ـ أنا بخير . . . فاصدقينى القول : أخرجت فى الليل أم لم أخرج ؟

ـ تايا . . تايا . . انك ما زلت متعبا !

ـ هناك أحلام غريبة يا ميريس تملأ رأسى . أمجرد أحلام هى ، أم حقائق واقعة ؟

وجلس « تايا » متربعا على الأرض ، وانسرح يفكر . . وجعلت « ميريس » تحضر له الفطور ، وأخذ « تايا » يشرب الحليب ويأكل الكعك . وبعد حين قال :

أعندك ما تروينه لى عن ايزيس ربة الأرباب ؟ انى أذكر أشياء عنها لقننى اياها الكهنة لما كنت صغيرا ، ولكنها لا تشفى غليلى . أريد أن تقصى على يا ميريس أخبارها ، وتعددى لى أوصافها ، وتنشدينى أناشيدها ، تلك الأناشيد الساذجة التى تعلمتها من أمك ، الأناشيد الخالدة التى يشم منها المرء عطر الماضى السحيق

وشرعت « ميريس » تتحدث له عنها فى أسلوبها الساذج الأخاذ . و « تايا » يصغى اليها ، كما يستمع طفل أول مرة الى ما تقصه عليه جدته من سمر شائق . . .

وأمضى « تايا » اليوم مستلقيا على فراشه ، يستيقظ لمزماره مرة ويحلم أخرى ، حتى انقضى النهار ، وبدأت طلائع الليل تزحف على الوجود . فنهض ، وأخذ يعد عجينة الصلصال ، ليصنع منها التمثال المصغر . . .

ولما انتهى من عمله قام فارتدى أفخر ما عنده من الثياب ، ورجل شعره ، وطيبه بالعطور ، ثم حمل الصلصال ، وخرج الى الباب يرقب

مطلع القمر : السماء صافية، والريح ساكنة، والنجوم تبتسم فى مراقدها البعيدة . . . وهو جالس يناجى نفسه !

وبدأ قرص القمر يظهر ملتهبا كأنه نار عظيمة تهم بالتهام الكون. فوقف « تايا » وقلبه يهفو ، ومكث يرنو الى القمر وهو يعلو فى السماء ليستكمل نموه ، ويخلع عنه شيئا فشيئا غلالته الأرجوانية ، ويظهر على الملأ بجسده الفضى اللألاء !

وسار « تايا » حاملا عجينة الصلصال ، ميمما شطر النهر ، وهو دائب التفكير فيها . . . أتجىء حقا فى الموعد المضروب ، أم كانت تغرر به وتسخر منه ؟

وأخيرا وصل الى غابة النخيل ، وما كاد يقترب من مكان اللقاء المعين ، حتى رآها آتية صوبه

ونظرت اليه ، ونظر اليها !

وابتسمت له ، وابتسم لها !

ثم مضيا صامتين الى شاطىء النهر ، وهناك قال لها « تايا » :

المكان هنا صالح للعمل . . .

وأجلسها على الرمل النقى تجاه القمر ، وأخذ ضياؤه ينسكب عليها، فبدت كأنها سابحة فى لجين رقراق !

ووضع « تايا » عجينة الصلصال أمامه ، وأخذ مرقمه يعمل . وكان كلما أراد أن يثبت نظره فى وجه حسنائه، شعر بما يشبه الدوار ، وشاع فى جسمه وهن مفاجىء . . .

ولكنه استمر يعمل . . .

وبغتة رمى بالمرقم ، وأخذ يجفف عرقه ، فقالت :

أتعبت ؟

ـ كلا . . انما . . .

ـ انما ؟!

ـ هذا الصلصال لا يريد أن يخضع لفني ... انه عنيد ... أجده عصيا هذه المرة لا يلين !

ـ تايا ...

ـ ان تايا يخشى الاخفاق أول مرة فى حياته ، ويتوجس خيفة من هول الهزيمة

فنهضت ، ودنت منه ، فمثل أمامها منكس الرأس ، ثم أخذ بيدها ، وقال هامسا كأنه يحدث نفسه :

منذ برهة كنت جالسا أمام دارى ، أترقب ظهور القمر ، فلو طلب الى فى تلك اللحظة أن أنقش صورتك من مخيلتى ، وفى الظلام الحالك، لنقشتها كما هى ، صادقة التعبير ، وافية القسمات ... أما الآن ، وأنت أمامى ، فلا أدرى : ما الذى يشل يدى ؟!

ـ أوجودى هو الذى يزعجك ؟

ـ لا أدرى ... ولكنى أعترف لك بأنى أشعر وأنا معك بقلق وحيرة !.. وأتلفت حولى فأرى ذلك الوجود غامضا خفيا مفعما بالأسرار ، هذا الوجود الذى لم أكن أعبأ به فيما مضى ، ولا أعتبره فى نظرى الا طريقا مبتذلا سخيفا ينتهى بسالكه الى الفناء والعدم !..

ـ تايا .. تايا !..

وانحنى على يديها يقبلهما فى خشوع ، ويطيل ، وهو يقول :

من تكونين ؟ قولى بربك : من تكونين ؟

فأجابته فى رفق :

أنا كما تشاء أن أكون !..

*

..... واستمر « تايا » ليالى متواليات يعمل فى صنع التمثال الصغير ، مستلهما فنه منها ... وهى جالسة على الرمال ، يغمرها النور الفضى العظيم . فاذا ما آب الى داره ، صعد الى السطح ، فتمدد عليه ،

ووجهه الى السماء ، وبقى يتأمل النجوم والليل ساج من حوله يحتضنه احتضان الأم الرءوم ... ... وينطلق « تايا » يفكر فى فلسفة هذا الوجود ، وحكمة هذا الكون ، فى ذلك الجمال الأبدى الذى يشمل كل شىء ، ويتغلغل فى كل شىء ، ويشع فى هذا العالم الرائع من كل شىء !

وكان القمر يتصاغر ويضمحل ، حتى حلت أخيرا الليلة التى لايبقى فيها نوره الا لحظات ، ثم يتوارى

وأسرع « تايا » الى مكان اللقاء ، وبرز القمر المحتضر ، وأخذ ينشر على الكون ابتسامته الناحلة !

ورآها قادمة اليه ...

واقتربت منه ...

واذا برأسها يدنو من رأسه ، وبشفتيها تطبعان قبلة على جبينه ...

واذا بالقمر ينطفىء ويهوى فى غياهب الظلمات ...

واذا بالطيف يخبو ، فكأنه لم يكن !...

ووقف « تايا » وحيدا ، يستمتع على مهل بمذاق تلك القبلة الساحرة ، ثم عقد ذراعيه على صدره ، وطأطأ رأسه ، وركع فى وقار !

*

... وذهب « تايا » الى صديقه « رحيو » الكاهن الأعظم ، وأخبره بازماعه نحت تمثال لربة الأرباب « ايزيس » ... وأنه سيرفعه هدية الى المعبد ، لا يتقاضى عليه أجرا ...

وهيأ زاده ، وودع « ميريس » وحمل التمثال الصغير ، وانطلق فى الصحراء يطلب محاجر الجبل ...

ومكث « تايا » يعمل فى المحاجر شهورا طوالا ، فانقطع خبره عن « منف » وكاد الناس ينسونه ...

وكانت قوافل التجار العابرة من المنطقة التى يعمل فيها « تايا » تحمل عنه الى « ميريس » و « رحيو » نتفا من أخبار مبهمة متناقضة ، فقلق كلاهما عليه ، واعتزما أن يخرجا بنفسيهما يتقصيان حاله

وخرج « رحيو » ذات يوم فى جمع من جنود وأحبار، وبينهم العجوز « ميريس » ميممين شطر المحاجر ، اذ يعمل الفنان !

وما كاد الجمع يشرف على الوادى حتى طالعهم وجه « ايزيس » يطل عليهم فى جلال وروعة ، فوقفوا مبهوتين ينظر بعضهم الى بعض . . . ثم تقدموا ، وكانوا كلما اقتربوا من التمثال ، فبدت لهم معالمه واضحة جلية ، ازدادوا من خشوع واكبار . . .

كانت « ايزيس » ماثلة عليها مئزر الآلهة ، يشع منها جمال بهى ، جمال حى نابض ، يجمع بين عظمة الأرباب وفتنة البشر ، جمال جديد لم يقع بصر عليه ، ولم يستشعر سحره انسان فى غير هذا التمثال !

ونظر الجميع اليها . . . ثم خروا أمامها ساجدين !

وما ان رآهم « تايا » حتى تقدم نحوهم مبتسما ، وهو يسير فى شبه غيوبة حالمة ، فجرت اليه « ميريس » وأحاطته بذراعيها ، وقالت له :

أكنت معتزما أن تقيم هنا الى الأبد !

ـ وددت لو تم ذلك !

ـ منفردا ومنقطعا عن الدنيا ؟ . .

ـ أأكون وأنا معها منفردا ومنقطعا عن الدنيا ؟!

ـ تايا . . ابنى الحبيب . . استيقظ . . أنائم أنت ؟

ـ لا أدرى يا ميريس . . . أنائم أنا أم يقظ ؟

ـ وماذا فعلت طوال هذه المدة ؟

ـ كنت أعمل ليلا فى ضوء القمر ، فاذا جاءت أيام السرار ، ففقدت ضوءه ، كان لى فى بريق النجوم عوض !

وبعث « رحيو » سرية من الجند الى « منف » تخبر فرعون وقومه بما رأوا . . .

وبعد أيام عاد « رحيو » مع صحبه بالتمثال من الصحراء ، فلما أشرف الركب على المدينة ، خرج فرعون بنفسه فى حفل زاخر يستقبل « ايزيس » ربة الأرباب !..

وتعالى الهتاف ، فتجاوبت به أنحاء المدينة ، وصدحت الموسيقى مهللة مكبرة ، وأطلق البخور ، ففاحت أطيابه ذكية فى كل مكان ، وانعقدت فى الجو منه سحائب ظللت « ايزيس » ومن معها ، فكانت تقيهم وهج الشمس . . .

ويمم الجمع صوب المعبد ، و«تايا» يخطو صامتا فى أعقاب الموكب بجانب « ميريس » وقد تعلق نظره الحالم دائما بالتمثال !

ولما انتهى الحفل الى المعبد ، ونصبت « ايزيس » فى أكبر أبهائه ، سجد أمامها فرعون طويلا ، ثم خرج وأناشيد الكهنة تتقدمه وتتبعه . .

واندفع الناس بعد ذلك الى المعبد يتزاحمون ، فامتلأ بهم المكان وفاض

*

وعادت « ميريس » الى المنزل ، تعد ل « تايا » مرقدا وثيرا ، وطعاما شهيا ، ونبيذا طيبا . . .

أما « تايا » فانتحى جانبا لينجو بروحه من زحمة الاحتفال ، وكلفة المراسم . . .

وحينما أخذ الليل يبسط على المدينة رداءه ، ويحتضنها بين ذراعيه ، وقد أقفرت السبل من روادها ، أقبل « تايا » حتى دخل المعبد ، فوجده خاليا ، الا من قناديل الزيت فى نورها الخافت . فدنا من التمثال ، فى خطا بطيئة ، وكان التعب قد نهكه ، والجهد قد بلغ منه كل مبلغ ، فاستلقى على الأرض بجواره ، واستغرق فى سبات عميق !..

أغلال

كنت أعيش فى « بنها » عيشة متواضعة ، متكسبا من مهنة المحاماة التى لم تكن تدر على الا الربح القليل ، مقيما وحدى فى منزل ريفى فى ضاحية المدينة . وكانت حياتى مملة ، من الدار الى القهوة : أماكن موحشة ، ووجوه متشابهة ، ومناظر لا تتجدد ! تتغير

وعدت ليلة الى دارى متبرما ، وفى يدى رسالة من أخى القاطن «بالقاهرة» ينبئنى فيها باخفاقه فى مسعاه ، اذ كلفته البحث عن وظيفة لى فى احدى الوزارات ، وألححت عليه فى ذلك . وختم رسالته بقوله : انه سيعيد الكرة ، ويؤمل أن يساعفه التوفيق ، فيجب أن أتذرع بالصبر

دخلت الدار ، وطرحت الرسالة على المائدة ، وأشعلت مصباح النفط القذر ، وجلست أطالع الصحف

وباغتتنى حركة استرعت انتباهى ، فأرهفت أذنى ، فسمعت صوت تنفس ، وأيقنت فى الحال أن هنا شخصا فى الحجرة ، وأسرعت نبضات قلبى ، ولكنى نهضت وصرخت :

اخرج ، والا أطلقت عليك الرصاص !

وتحركت حركة أتظاهر فيها باخراج (المسدس) المزعوم من جيبى الخلفى ، وتذكرت فى هذه اللحظة أن السكين الصدئة المعدة لقطع

الجبن ، التى لا أملك سواها سلاحا ، قابعة على الرف فى الحجرة المجاورة !..

وجعلت أصرخ وأنا أضرب بيدى على المائدة ، مكررا قولى السابق. وبعد قليل ظهر رأس انسانى من تحت السرير ، وسمعت صوتا أشبه بصوت الصبيان يقول :

أستحلفك بالله ألا تقتلنى يا سيدى !

وخطر ببالى أنه غلام من المشردين ، قد دخل المنزل فى أثناء غيابى ليسرق . فتزايل خوفى ، وتقدمت من السرير ، وأمسكت بأذن الغلام، وشددتها وأنا أقول :

ما الذى جاء بك الى هذا المكان ؟ تكلم !

وخرج الصبى وهو يتوسل الى ألا أسلمه الى الشرطة ...

ولمست يدى صدره غير عامد ، ولمحت شعره الغزير المتهدل على منكبيه ، فصرخت فى عجب :

أنت فتاة ؟!

وكانت فى أسمال بالية قذرة ، يتوضح تحتها جسمها الهزيل . ووقفت أمامى ذليلة وهى تهمهم :

أقسم بالله العظيم اننى لم أقصد سرقتك !

ـ اذن لماذا أنت هنا ؟

وعدت الى مقعدى بجوار المائدة ، وجلست هى القرفصاء أمامى وضوء المصباح يغشاها ... وراعتنى منها أول وهلة عيناها الواسعتان السوداوان ينبعث منهما وميض خلاب ...

وبدأت تروى لى قصتها ، فاذا بها قصة مملة مفككة . وكانت تتكلم بلهجة مريبة . ولاحظت أنها كانت تعيد رواية بعض الحوادث ، فتخلط فيها ، وتحكيها على وجه آخر !

فجعلت أنقر على المائدة بأصابعى ، ثم صحت :

وأخيرا ؟

ـ وأخيرا يا سيدى أنا فتاة بائسة ، ولكننى جلدة على العمل وأقوم بكل ما يطلب الى من شئون البيت . . .

وفهمت مرادها ، فأجبتها بلا امهال :

ليس عندى عمل لك ، ولكن يمكنني أن أعطيك منحة لوجه الله !

وجعلت أفتش فى جيبى عن شىء ، فاقتربت منى ، وأهوت على ركبتى تقبلهما ، وهى تقول :

بالله عليك لا تطردنى يا سيدى هذا المساء !.. ليس لى مأوى أبيت فيه . . .

ونظرت الى فى توسل بعينيها الواسعتين ، فلم أجبها . وتراجعت هى فى صمت الى مكانها . وتملكنى بعض وجوم ، أسلمنى الى شىء من التفكير . . .

وقمت الى صوان ملابسى ، فأخرجت منه جلبابا من جلابيبى القديمة، ورميته الى الفتاة قائلا :

هاك ثوبا تسترين به جسدك

ثم ذهبت الى الحجرة المجاورة وأحضرت عشائى ، وبدأت آكل وأنا صامت مفكر . ثم تنبهت الى أنها لا بد أن تكون جائعة ، فناولتها شيئا من الطعام ، فتقبلته بسرور ، وجلست عند قدمى تأكل كالهرة القنوع . وكانت بين فترة وأخرى ترفع بصرها الى مبتسمة ، وسمعتها تتكلم فى اسهاب ، ولا بد أنها عادت الى رواية بعض حوادث من حياتها . كنت أسمع صوتها غير متتبع حديثها ، اذ شغلت بالتفكير فى أشياء أخرى . وبدأت أشعر بانقباض لا أدرى له سببا . . .

ولما انتهيت من العشاء ، قمت وأنا أقول لها بلهجة الجاد :

غدا صباحا تتركين المنزل . . . أسامعة ؟

فأجابتنى فى ذلة وخضوع :

سمعا وطاعة !

وأخذت تجمع صحاف العشاء ، وتنظف المائدة . وذهبت الى الحجرة المجاورة ، وسمعتها بعد قليل تغسل الأوانى

وفى الصباح استيقظت متأخرا ، اذ أصابنى فى أول الليل أرق ، وتركت فراشى ، فوجدت الفتاة منتظرة أوامرى ، فاستدعيتها لتحضر بعض ما يلزم لى ، فلبت طلبى فى خفة . ورأيتها لابسة جلبابى ، بعد أن قصت من أذياله ومن أكمامه ، وسوته على قدها فى ذوق ومهارة ، فكأنه فصل عليها بادىء بدء ... وكان وجهها نظيفا ورائحتها طيبة . ووجدت الفطور على المائدة معدا أحسن اعداد ، وقصدت الى الحجرة المجاورة ، فتبعتنى بلا كلام ، ثم تقدمتنى آخذة بالابريق ، متأهبة لتصب الماء على يدى لأغسل وجهى ...

وعند ما انتهيت من طعامى وارتداء ملابسى ، وتهيأت للخروج ، دنت منى ، وقالت بلهجة المطمئن :

أى صنف تريد أن أعده لك لطعام الظهر ؟!

وكنت معتزما أن أجيبها بأنى أتغدى دائما فى الخارج ، ولكنى وجدت نفسى أقول :

كل الأصناف عندى طيبة !

وناولتها قطعة من النقود ، ثم تركت الدار توا

ولما عدت فى وقت الظهيرة ، وجدت المنزل على غير عهدى به ، كل شىء مرتب نظيف ، وعبق البخور يستقبل الداخل ، ولم ألبث أن فغمتنى رائحة الطعام الشهية ، ثم قدم لى غذاء لذيذ لم أطعم مثله منذ سنين ، وشعرت بأنى أعيش فى جو جديد ...

وكانت « غندورة » مشرقة الوجه ، لا تفارق الابتسامة ثغرها . حقا انها لم تكن على شىء من الجمال ، ولكن كانت فيها جاذبية خفية تضطر المرء أن يحدق اليها ...

وبعد ما انتهيت من الطعام ، تمددت على الأريكة ، وأشعلت لفافة ، وجعلت أتذوق التدخين فى شغف ، وجلست « غندورة » على الأرض بجوار قدمى ، وجعلت تتحدث فأنصت لحديثها فى تشوق ، وبدأت أجد فيه بعض الطرافة ، مع أنه لم يتغير عن حديث الليل . . . وصدمتنى كذبة أثناء روايتها لحادثة من حوادث حياتها ، وقد كانت روتها لى فى الليل على ثلاثة أوضاع متباينة . فرفعت رأسى ، ونظرت اليها أريد أن أستدرك عليها ، فقابلتنى عينها النجلاء ، فلم أفه بشىء ، وابتسمت لها ، ثم أملت رأسى الى موضعه ، وأنا أغالط نفسى ، وأنتحل للفتاة شتى المعاذير . . .

وعدت ذات مساء الى المنزل ، فوجدت فتاتى تعد لى الفراش ، فباغتها بقبلة فى عنقها ، فأبدت لى استسلاما غريبا ، كأنها كانت تتوقع ما أقدمت عليه . . .

*

وتواردت الأيام ، ولم أعد أرى فى الدار تلك العبوسة القاتمة . وشعرت بأن أصحابى يضايقوننى ، وأن القهوة تمضنى ، فبدأت أقلل من ترددى عليها . . . وقضيت أكثر أوقات فراغى فى المنزل أنعم بصحبة فتاتى وأستمتع بحديثها على ما فيه من تفاهة وسخف !

وكثيرا ما كنت أسائل نفسى :

ألها أهل ؟ وأين موطنها ؟ وهل اشتغلت بالخدمة عند غيرى ؟

ولكنى لم أكن أهتدى الى أجوبة أطمئن اليها . وظل ماضيها يشوبه الغموض ، وعشت معها كذلك وأنا راض عن حياتى كل الرضا

*

وتواصلت أيام أخرى . . . ووردتنى رسالة من عمدة « ميت فاضل » وكانت تربطنى به صداقة قديمة ، يدعونى فيها الى أن أحضر حفل زفاف

نجله . وأخبرت « غندورة » أنى سأقضى الليلة فى « ميت فاضل » وسأعود غدا ، فبدا عليها أسف شديد . . . ودعت لى بالسلامة فى المضى والأوبة

وسافرت بعد العصر من « بنها » قاصدا « ميت فاضل » . وكان لا بد لى أن أبدل القطار فى « طنطا » ، فلما بلغتها وجدت رسول العمدة ينتظرنى ، وبادرنى باخبارى أن حفلة الزفاف قد تأجلت لأسباب مفاجئة ، وأن العمدة يعتذر لى فى خجل وتأسف ، فشعرت بأن حملا قد انزاح عن عاتقى

وما ان اقتربت الساعة من العاشرة ، حتى كنت أمام دارى أعالج فتح الباب بالمفتاح الذى معى ، فوجدته مقفلا من الداخل بالمزلاج ، فجعلت أطرق ، وأنادى « غندورة » لتبادر بفتحه . ولكن لم يلب ندائى أحد . وطرق سمعى أصوات هرج ومرج مكتومة يتخللها همس ، فأنصت ما وسعنى أن أنصت ، ثم اندفعت أقرع الباب بشدة ودمى يغلى، وكنت أصرخ قائلا :

افتحى ، والا كسرت الباب !

وطال مكثى وأنا أقرع الباب وأصرخ ، واعتزمت تحطيمه بأية وسيلة تكون . . . وانفتح الباب فى هذه اللحظة ، وقابلتنى « غندورة » على عتبته وهى ترحب بى ، ثم قالت :

لقد أقفلت الباب بالمزلاج ، خشية اللصوص . وكنت متعبة ، فنمت نوما ثقيلا

فلم أنظر اليها . ودخلت مقطب الوجه صامتا ، وأنا أرتجف ، فصادفتنى رائحة غريبة ، ووجدت الحجرة فى حالة يرثى لها ، ولا سيما فراشى . كل شىء مهوش مختلط، وطفقت أفتش تحت السرير والأريكة وفى الصوان وخلف الصندوق ، وفى كل موضع تقع شبهتى عليه . ولكننى لم أعثر على أحد . وكانت هى تسير خلفى كقطة أوجعها

الضرب ، متظاهرة بمساعدتى ، ولسانها لا يسكت عن الكلام . . . أو كانت تعتذر عن خطأ ارتكبته ؟ أم كانت تستنكر ظنونى ؟ أم هى تسألنى : عم أبحث ؟ لم أفهم شيئا مما تقول . كنت أسمع صوتها وحده . . . وبعد أن انتهيت من تفتيشى جعلت أذرع الحجرات ذهابا وجيئة وأنا أفكر ، ويداى معقودتان على ظهرى . وبغتة اندفعت مهرولا نحو المغسل ، وهى ورائى ، فوجدت بابه مقفلا ، فدفعته بمنكبى ، فانكسر ، ودخلته على الأثر ، وكان مظلما . ولكننى تبينت فيه بسهولة شخصا جالسا القرفصاء فى حالة رعب وفزع ، فجذبته من ذراعه بشدة ، وأخرجته الى النور ، فاذا به فتى مراهق ذو ملامح ريفية حسنة ، وكان وجهه شديد الامتقاع ، حتى خيل الى أنه على وشك الاغماء . وكان يردد متلعثما كلمات أشبه بكلمات الاستغفار ... أما هى فكانت تثرثر ، وكانت لهجتها لهجة استعطاف . ووقفت أنظر اليه وأنا صامت . وأخيرا أشرت الى الباب اشارة صريحة فيها عنف ، فخرج الغلام مهرولا ، وهو لا يصدق عينيه ... وما كاد يتوارى عن نظرى ، حتى قامت بى رغبة جامحة فى اللحاق به ، وتحطيم عصاى على رأسه ، وعجبت لنفسى كيف لم أسلمه الى الشرطة ، أو كيف لم أشتمه على الأقل !

وحانت منى التفاتة الى الفتاة ، فرأيتها ترنو الى بنظرات كلها ضراعة ، وقلت لها على الفور :

اجمعى أشياءك ، والحقى به فى الحال !

وأشرت الى الباب ، فطأطأت رأسها ، وسارت الى الحجرة الثانية بخطا هينة . وسمعتها تغنى باعداد شىء ، وجلست أجفف عرقى ، ومددت يدى الى الحقيبة التى أضع فيها أضابير القضايا المهمة ، وأخرجت منها احدى القضايا ، وفتحتها أمامى ، ومضيت أقلب الصفحات . . . ورأيتها تعود حاملة طعام العشاء ، ووضعته على المائدة بالقرب منى ، ثم رجعت من حيث أتت . وبعد قليل ظهرت ثانيا ترتب الحجرة وتنظفها ،

وكنت أراقبها مراقبة دقيقة ، مع تظاهرى بدرس القضية . وفى لحظة كانت الحجرة على أحسن ما تكون نظافة وترتيبا . وامتلأ أنفى بعبق البخور الطيب ، ورأيت يدى تمتد الى الطعام ، واذا بى آكل . وبعد قليل هدأت كل حركة بالمنزل ، وشاهدتها جالسة القرفصاء بجوار باب الحجرة ، ثم رأيتها تتحرك فى سكون ، وتتدانى من المائدة. وأخيرا شعرت بيديها تلمسان قدمى وتدلكانهما ، وكنت أقلب ورق القضية أمامى فى اختلاط . وسرعان ما أحسست شعورا ملتهبا يضطرم بين جوانحى ، وأمسكت رأسها بغتة ، وأدنيت وجهها منى وأنا أحدق فيها بانفعال ، ودمدمت فى همس مضطرب :

لماذا تجرأت على هذه الفعلة يا خبيثة ؟

فجعلت تقسم لى انها بريئة ، فجذبتها نحوى وأنا أقول :

كذب وبهتان ... كنت منذ لحظة بين ذراعى هذا الغلام المخنث !

واندفعت أقبلها فى تلهف ، فكأنى كنت أمزق شفتيها . وكانت هى فى أحضانى ينبعث منها سحر عجيب يزيد اشتعال النار فى قلبى ...

*

وما فتئت الأيام تترادف ...

وأيقنت أن لهـا علاقات بكثير من غلمان الحى ، وكلما خطر ذلك ببالى ، قامت فى نفسى ثورة سخط وغضب ، وأمسك بها فأنهال عليها ضربا وايجاعا . ولكن ما أسرع أن يتملكنى شعور ندم لاذع ، وبخاصة حين لا تشتكى ولا تتألم ، بل أراها تزداد اخلاصا فى خدمتى ، وتهالكا فى العمل على راحتى

وازداد تعلقى بها ، فلا تطول غيبتى عنها حتى أشعر بحنين نحوها ، حنين غريب ممزوج بكره ، فأهرع الى دارى وأنا ساخط مغضب ، فاذا ما وقع نظرى عليها انصببت لاعنا، وهى أمامى خاضعة مستكينة لاتتحرك

ولا تنبس . ثم أجلس على الأريكة ، فيستولى على شعور كره لنفسى ، فتتقدم منى فى هدوء ، وترتمى على الأرض قرب قدمى ...

واستطعت مرة أن أطردها ، ووجدت على أثر ذلك برد الراحة . ولكن ما جاء الصباح حتى رأيتها تفتح الباب وتدخل ، فقابلتها بصمت ، وعادت الى عملها كأن لم يقع شىء . وكنت أراقبها وأنا مغيظ ... ولما جاءتنى بالفطور ، ووضعته على المائدة ، أمسكت بيدها بشدة ، فنظرت الى بعينيها الواسعتين نظرات وديعة وهى تبتسم ، فجذبتها نحوى ، وأخذتها بين أحضانى وأنا أغمغم :

لم أستطع النوم الليلة فى غيبتك يا غندورة !

كنت أحاول كثيرا أن أنشىء علاقات غرامية بنساء حسان ، فأجد اخفاقى مروعا ... وبدأت أشك فى نفسى وفيما حولى : أمريض أنا ؟ وما هو نوع هذا المرض ؟ وهل يوجد شىء اسمه سحر ؟ وهل تمد لى هذه الفتاة شباكه ؟.. واضطررت أن أستعين بامرأة عجوز ، قيل لى عنها انها أشهر ساحرة فى « المديرية » ، ولكنها لم تستطع أن تعمل لى شيئا !

وعشت كذلك . وأنا لا أدرى : أأحيا كسائر الناس حياتهم المألوفة؟ أم أنا مستغرق فى سبات طويل ، وما هذه الفترة التى أجتازها من حياتى سوى أضغاث حلم غريب ؟!

وعدت مرة الى دارى مساء وأنا شبه محموم ، ورأيت « غندورة » تغلق الباب بعدى بالمفتاح ، كشأنها فى كل ليلة . فنظرت حولى نظرة خبل واستغراب ، وخيل لى أن نوافذ الحجرة قد انقلبت الى طاقات صغيرة تتعاكس عليها قضبان غلاظ ، وأن الباب قد تحول من باب خشبى الى باب مصفح بالحديد يحمل قفلا كبيرا . وتراءت لى « غندورة » فى صورة حارس جبار ، يحمل فى يده حلقة كبيرة من المفاتيح . فصحت فى وجهها وأنا أدفعها :

ابعدى عنى !

واستلقيت على الفراش وأنا أرتعد ، فأقبلت « غندورة » بعد قليل وبيدها كوب ماء معطر بقطر الزهر . . . فهممت بطردها ، فاذا بها تبتسم لى فى عذوبة وهى تقول :

أأنت الآن أحسن حالا ؟!

فنظرت فى عينيها طويلا وهمست :

على أحسن حال !

*

وتسلمت صباح أحد الأيام رسالة مستفيضة من أخى ، فجعلت أقرؤها فى اهتمام ، فاذا فيها يقول :

« ها قد أفلحت أخيرا فى مسعاى ، ووجدت لك وظيفة فى وزارة العدل يغبطك عليها أقرانك . . . ستترك « بنها » وحياتك الممضة ، وتعيش بيننا فى «القاهرة» عيشة البهجة والائتناس التى تصبو اليها من زمن بعيد . . . وهناك خبر لا يقل شأنا عن خبر الوظيفة ، هو أن أسرة « بدر بك » ترحب بمصاهرتك ، فقد فاوضت الأب فى الأمر ، واتفقنا على كل شىء . . . وتذكر أنك حدثتنى كثيرا عن ابنة «بدر بك» ، وأنك تعد زواجك منها ومصاهرتك لأبيها من أعز أمانى حياتك ! »

وكنت أقرأ الرسالة ، وأنا أكاد أكذب ناظرى . وتركت الدار من ساعتى أجرى ، وذهبت الى المحكمة ، ثم الى القهوة ، ونشرت الخبر بين أصدقائى فى ضجة ومرح

وخرجت الى الحقول أستنشق الهواء بصدر منشرح

ودعوت رهطا من أصدقائى الى الغداء فى أشهر مطاعم البلدة . وأمضيت معهم طول اليوم فى ضحك وائتناس . ولما عدت الى دارى مساء ، قابلتنى « غندورة » بابتسامة وديعة ، وقالت لى :

انى قلقت لتغيبك ، وانتظرتك طويلا للغداء . . .

فصحت قائلا :
أنا حر فى تصرفاتى ، أتغيب الى الوقت الذى أريده ، وآكل فى المكان الذى يعجبنى . . .
وجعلت أكرر قولى :
أنا حر ، حر فى تصرفاتى . . . لا تتدخلى فيما ليس من شأنك !
وكانت « غندورة » تنظر الى فى دهشة ، ثم رأيتها تنسل منكمشة الى الحجرة المجاورة ، وجلست على الأريكة وأنا أتضاحك
ولما جاءتنى بالطعام ، كنت أهدأ حالا من قبل . فقلت لها بلهجة طبيعية أو تكاد :
لقد دعانى جمع من رفاقى الى الغداء . . . هذا سبب تغيبى !. . على أنه يجب ألا تقلقى الى هذا الحد . . .
فابتسمت ، ثم جلست كعادتها عن كثب من قدمى ، وطفقت تحدثنى فى سكينة أحاديثها اليومية ، فلم أصغ الى حرف مما تقول ، بل كنت هائما فى تفكير مضطرب . وأخيرا رفعت رأسى ، وقلت لها مقاطعا :
اسمعى يا غندورة . . . سأسافر الى مصر بعد أيام . . . وسأتغيب فيها أسبوعا
فغمغمت وهى تدلك قدمى :
أسبوعا !. .
ـ عندى أعمال مهمة . . . ولا سيما أنى لم أر أخى منذ مدة طويلة
وكان صوتى متغيرا ، ولاحظت أن تدليكها قد اختل نظامه فلم يعد كما كان من قبل . . . ولبثت صامتة منكسة الرأس ، منهمكة فى عملها.
وبرمت بنفسى ، وتابعت كلامى ، وأنا أحاول أن أظهر بالمظهر الطبيعى، وقلت :
ربما امتدت اقامتى أكثر من أسبوع . . . من يدرى ؟. .
وقامت « غندورة » متمهلة . وقالت بصوتها المستضعف :

أتريد أن أجهز لك كوبا من الشاى ؟
فأمسكت هنيهة ، ثم أجبتها :
لا بأس !
ولما جاءتنى بالشاى ، وأرادت أن تعود ، استوقفتها ، ثم قلت :
تعالى واجلسى . .
فأذعنت لأمرى ، وجلست فى موضعها المختار عند قدمى تدلكهما ، وبدأت أصب الشاى، وكان لقرقرته نغمات أشعرتنى شيئا من الرهبة . .
ومددت يدى الى « غندورة » ، وجعلت ألاطف رأسها ، ثم قلت :
وأنت ماذا تفعلين فى أثناء غيبتى ؟
ـ سأنتظرك حتى تعود !
وشرعت أشرب الشاى وأنا صامت ، وتلاطمت فى رأسى الأفكار . وكانت « غندورة » قد عادت الى تدليكها لقدمى وهى صامتة أيضا . . .
وبعد حين قلت :
ألا تفضلين الذهاب الى أهلك !. .
ـ ليس لى أهل !. .
فجذبت رجلى من بين يديها ، وقلت فى لهجة جافية :
لقد أوهمتنى أنك ذات أهل وأقارب كثيرين !
فأجابتنى بانكسار وذل :
بل الأمر على العكس ، لقد أكدت لك أننى يتيمة منقطعة . . ليس لى فى الوجود أحد !
فخالجنى الشك فى اعتقادى . . . ورأيت « غندورة » تقوم على مهل ، متجهة نحو الحجرة الثانية ، وكانت تمسح عينيها بذيل ثوبها . كنت أراقبها بنظرات المخبول ، وقلبى تتنازعه شتى العواطف !
ودخلت الحجرة ، وأقفلت الباب خلفها ، وقمت فى حجرتى أغدو وأروح ، ويداى معقودتان على ظهرى . وكنت كلما اقتربت من باب

الحجرة الأخرى خففت من خطواتى ، وأنصت.. ثم أعاودسيرى...
وظللت كذلك وقتا ما، وكان السكون الشامل يبسط جناحيه على الحجرة المجاورة . وساورتنى أفكار غريبة ، وجعلت أنصت طويلا على بابها ، وأنا مضطرب ... لم أعد أسمع تنفسها ... وأخيرا فتحت الباب ، ودخلت عجلان أقول :

غندورة ... أين أنت ؟

ورأيتها ممددة على فراشها الأرضى ، بعيدة عن نور المصباح الضئيل يغشاها الظلام ، فهرعت اليها، وأخذت رأسها بين يدى، وأدنيت وجهها من وجهى ، وجعلت أسمع أنفاسها البطيئة ، وأنا أقول :

غندورة ... أأنت بخير ؟!

فمدت يديها فى سكون وهى مغمضة العينين ، ولفتهما حول عنقى ، وجعلت تهمس بكلمات غرام ، وهى تدنى رأسى من وجهها ، حتى تلامست شفتانا ...

ومرت أيام ، وحياتى تزداد قلقا وحيرة ، والكآبة تحيط بى من كل جانب ، ففقدت بشاشتى

وفى صبيحة يوم من الأيام ، استيقظت من النوم وأنا أكاد أختنق ، وقصدت على الفور الى المائدة ، وكتبت رسالة الى أخى ، شكرت له فيها أجمل الشكر مسعاه الجليل ، وأظهرت له فرحى بوظيفتى الجديدة، وبزواجى من كريمة « بدر بك » . وأخبرته بأنى عقدت العزم على ترك « بنها » بعد ثلاثة أيام . وعينت له موعد وصولى ... وتناولت طعام الافطار على عجل ، ثم خرجت من الدار ، ومضيت أودع الرسالة صندوق البريد ...

وقضيت اليوم كله مع بعض الأصدقاء، ودعوتهم الى الغداء والشراب، وكنت أكثر من الصخب والضحك . وأحسست أن رفاقى بدءوا يتململون من صحبتى ، ويستثقلون طيشى ... وعدت الى دارى ،

وقابلتني « غندورة » بابتسامة مغتصبة ، ووجه كاسف . وراعني منها صمتها الطويل ، واجتنابها مرآى . ولما جاءت الى بالطعام ، وقفت بعيدة عن المائدة منكسة الرأس . وقالت وصوتها لا يكاد يسمع :

اقترحت على يا سيدى أن أذهب الى أهلى مدة غيابك ، وقد فكرت فى الأمر وقبلته

فنظرت اليها متعجبا ، وقلت :

ولكنك يتيمة بلا أهل ... ألم تخبرينى بذلك يوم سألتك ؟!

فأخذت تدعك يديها ، وقالت :

أقصد أني سأذهب الى معارف ... أقارب من بعيد ...

وقمت اليها ، ورفعت رأسها أمامى ، وكانت ملامحها متغيرة ، الا أن عينيها كانتا محتفظتين بوميضهما الجذاب الساحر . فأملت رأسها الى صدرى ، وقلت :

هل أخبروك بشىء عنى ؟.. قولى !

– كلا ... لا شىء !

وانفجرت تبكى ، وهى متشبثة بصدرى ، ثم قالت بصوت خافت متقطع :

لن أكون عقبة فى سبيل سعادتك !

– ولكنى لن أتركك قبل أن أطمئن على مستقبلك ... سأمنحك مبلغا وافرا من المال يساعدك على الزواج !

وتركتها تبكى على صدرى مليا ، ثم كفكفت عبراتها ، وذهبت لتحضر لى بقية ألوان الطعام ، وجلست آكل وأنا صامت أفكر . وارتمت « غندورة » على الأرض بجوار قدمى ، وبعد صمت قليل قالت :

لقد وجدت مكانا سألتحق به بعد سفرك !

فاستيقظت من تفكيرى ، وقلت :

مكانا ؟!

ـ مكانا أخدم فيه . . .
ـ عند من ؟
ـ عند مؤمن أفندى تاجر الحبوب !
ـ بهذه السرعة ؟
ـ ان الرجل يعرفنى من قبل ، وهو أول شخص خدمت عنده !
ونظرت اليها شزرا ، وقلت لها فى لهجة مبتورة :
حسنا !
وكان هذا كل ما تبادلناه من الحديث فى تلك الليلة ، واستيقظت فى غدى مبكرا ، وقصدت الى دار « مؤمن أفندى » تاجر الحبوب ، وكنت أعرفه . وهو شاب مرح ألوف للهو ، وله مغامرات موفقة مع النساء . فلما رآنى رحب بى ، وبعد مقدمة صغيرة قلت :
أتعرف فتاة تسمى غندورة ؟
فصمت قليلا ، ثم قال :
ذات العينين الواسعتين ؟ أجل ! أعرفها جيدا ، لقد كانت خادمة عندى !
قال ذلك وهو يبتسم ، فلم أجد من نفسى دافعا للابتسام . وسألته :
وهل خدمت عندك طويلا ؟!
ـ بضعة أشهر . . .
وكان يلعب بسلسلة ساعته ، وهو ما زال يبتسم . وشعرت بأنه يكتم نكتة أو خبرا شائقا يريد الافضاء به الى . فأسرعت فى الكلام ، لأصده عن غرضه . وقلت :
ولماذا تركت خدمتك ؟
فاهتز فى مجلسه ضاحكا ، واشتدت مداعبته لسلسلة ساعته ، وشعرت بأن اجابته عن سؤالى الأخير ستنفجر كالقنبلة أمامى ، ولمت نفسى على

سوء اختياري للسؤال. وعجبت لماذا ورطت نفسي في الحضور بلا داع. وضت في تحد ظاهر :

لماذا أخفيت عني كل هذا ؟

فنظر الي متعجبا ، وقال :

ومن أين لي أن أعلم بأنك مهتم بهذا الأمر ؟

ولا أدري كيف تطور الحديث بيننا ، فألفيت نفسي أحتد مع صديقي وتراشقنا بألفاظ جارحة . . .

وأمضيت اليوم مختفيا عن الأنظار ، أجول في القرى المجاورة . وفي المساء عدت الى داري منهوك القوى مغموما . وجاءتني « غندورة » بالطعام ، ولما أرادت أن تغادر الحجرة استوقفتها ، وقلت :

أقسم بالله انك مسرورة من سفري !

فرفعت عينيها الواسعتين ، وقالت :

أنا ؟!. .

ـ وانك تنتظرين ساعة رحيلي بفارغ صبر ، لتذهبي عند مؤمن أفندي !.. هذا شيء لا يهمني بالطبع ، ولكني كنت أنتظر منك وفاء أكثر من ذلك على كل حال . . . لن أفكر في انقاص مكافأتك . . . كلمتي واحدة !

ـ أؤكد لك يا سيدي . . .

فقاطعتها قائلا :

ان صداقتك به قديمة .. من يدري ؟.. ربما . .

ولم أتم جملتي ، بل استطردت أقول :

متى قابلته ؟

ـ أمس ، لأكلمه في شأن استخدامي . . .

ـ واليوم ؟

ـ لم أترك عتبة الباب !

ـ كذابة . . . هل تظنين أنني غبي لأصدقك ؟

وساد الصمت بيننا لحظة ، وقمت اليها فجأة ، وجذبتها من شعرها ، وأنا أقول : اعترفي لي بحقيقة العلاقة التي بينك وبينه !

ـ أقسم لك انه لا . . .

ـ اخرسي يا لئيمة ، يا منكرة الجميل . . . غدا ستفارقين منزلي . . . أسامعة ؟ . . لن أقبلك يوما واحدا بعد الآن في خدمتي . . سأطردك طرد الكلاب ، وستخرجين من بيتي كما جئت بخرقتك القذرة . . أسامعة ؟

وتركتها وقد سكنت ثائرتي ، وشملني ارتياح . وذهبت الى الأريكة أجلس عليها . أما هي فقصدت الى باب الحجرة الثانية ، ووقفت بجواره وهي مطأطئة الرأس . وأشعلت لفافة ، وبقيت أدخن وأفكر في شتى الأمور : تركي «بنها» ، زواجي من كريمة «بدر بك» ، «مؤمن أفندي»

وطالت جلستي ، وبدأت أتثاءب . . . وتناولت الصحيفة وأخذت أتفرج في صفحاتها المصورة ، ثم تمددت على الأريكة والصحيفة بين يدي . وبعد قليل أحسست يدين تربتان قدمي في رفق وهوادة . . . فأغمضت عيني وأنا أبتسم !

وأمضيت اليومين الباقيين في منزلي ، أعد معدات الرحيل ، وكنت كثير الصمت والتفكير ، لا أكلم « غندورة » الا في الأمر الضروري . وتولاني سأم واكتئاب

ولما حل يوم السفر ، استيقظت من النوم مبكرا ، وتركت المنزل أبغي التنزه واستنشاق نسيم الصباح . . . ووجدت نفسي أقترب من مكتب البرق ، ودخلته في عجلة ، وتناولت ورقة كتبت فيها :

« خيري أفندي عبد المجيد ، بشارع مصطفى باشا فاضل بالقاهرة .

ألغيت سفري ، والتفاصيل بالبريد أسعد »

وناولت الورقة عامل البرقيات ، ونقدته ما طلب . وخرجت وأنا أجفف عرقي . . واتجهت الى داري ، منكس الرأس ، أمشي وئيد الخطا . .

مكتوب على الجبين

ما كاد « الشيخ غيث » يدخل الحارة التى فيها منزله ، حتى طرق سمعه صوت نساء تتشاجر ، وكانت الأصوات تزداد وضوحا كلما اقترب من المنزل . وعرف من بينها صوت زوجته الخشن الممتلىء ، فتأكد لديه أنها هى وجاراتها يتشاحن ، كما هى العادة كل يوم ، فتنهد مغمغما وهو مطرق

وكانت للشيخ فى قلوب الجيران منزلة رفيعة ، فلما رأته النسوة مقبلا عليهن يمشى مشيته المتمهلة الرزينة ، خففن من حدتهن ، وأوسعن له الطريق ، ليصل الى منزله بسلام . . . ومر بهن « الشيخ غيث » ، وهو يطلب لهن الهداية من الله !

وتركت زوجته النساء ، وتبعته الى المنزل ، وقد أخذت تشرح له فى اسهاب ممل أسباب المشاجرة ، وتحمل الجيران وزرها . ولما استقر بها المقام داخل الدار ، التفت اليها « الشيخ غيث » وقال فى لهجة هادئة:

لو كنت سمعت كلامى يا أم حسن ، وتحاشيت الاشتباك مع الجيران، لما وقع شىء من هذا !

فاحمر وجه المرأة ، ووضعت يديها على خاصرتها ، وقالت محتدة :

تريد منى أن أكون طيبة مع الأوباش ؟ أى كلام هذا يا رجل ؟!

وانبرت تسفه رأيه ، وتكيل له الشتائم ألوانا ، وهي تطول وتقصر ، وتقصر وتطول ، والرجل ينظر اليها صامتا . . . وأخيرا أدار لها ظهره ودخل حجرته بخطوات رفيقة ، وافترش سجادة الصلاة ، ومضى يصلي فرض المغرب . وما كاد ينتهي حتى سمع زوجته تبكي وتندب سوء بختها معه ، فخرج اليها وقال لها وهو يلاطف كتفها :

لا تبكي يا أم حسن . لا تبكي . . . حقك علي !

ثم انحنى على رأسها فقبله ، والمرأة تتمنع . وأخيرا نظرت اليه وابتسمت ، فابتسم لها . واعتدلت « أم حسن » في جلستها ، وقالت لزوجها معاتبة :

أيصح أن تعاملني هذه المعاملة يا شيخ غيث ، وأنا التي قضيت نهاري أهيىء لك طاجنا من السمك تشتهي أن تأكله الملوك ؟!

فتلمظ الرجل ، وقال :

وأين هذا الطاجن المبارك ؟ ان ريقي يجري في فمي !. .

فتدللت المرأة ، وأجابته :

لن تصيب شيئا منه عقابا لك !

ـ كل شيء محتمل الا أن تمنعيني طاجن السمك ! أنا في عرضك يا أم حسن !. .

وتضاحكا طويلا ، وقامت « أم حسن » لتعد لزوجها العشاء

و « الشيخ غيث » مقرىء يمارس تجويد القرآن لطلابه ، في العقد الرابع من عمره ، وافي القامة ، مفتول العضل ، له وجه صبيح ، ولحية مستديرة ينبعث منها الوقار والصلاح ، وعينان واسعتان تضوءان طيبة وعفافا . يكن له الجميع الحب والاحترام . . . يقرأ الراتب في المنازل والجبانات ، ويقوم بتنظيم الختمات . وهو ميسور الحال ، يعيش عيشة راضية ، لا يعكر صفوها الا زوجته الحمقاء السليطة اللسان

وكان لـ « أم حسن » صديقة تدعى « أم وحيد » ، تخطت عقدها الخامس ، لها ماض مشوب تجرى فى شأنه الأحاديث ، طواه الزمن وعفى أثره . وأصبحت اليوم شيخة جليلة تحفظ القرآن ، وتقرأ فى المنازل ، لصوتها الخشن المفزع رنين غل وضغينة ، ولنظراتها القاسية الجريئة رهبة ومهابة فى القلوب . كانت تزور « أم حسن » فتلقى منها كل حفاوة وتكريم ، فاذا ما دار بينهما الحديث انطلقت الشيخة تغتاب هذا ، وتنهش عرض تلك ، وهى تلعن الزمن الحاضر ، زمن الفساد والضلال ، وتترحم على الماضى وأهله الطيبين الأخيار

وكانت « أم حسن » تعتقد فى « أم وحيد » الطهر والصلابة فى الدين ، والتفقه فى أحكامه، فكانت كثيرا ما تستفتيها فى مشكلات تعرض لها

وذات يوم جاءت « أم وحيد » لزيارة صديقتها ، وبدأت حديثها تصب على الرجال أقبح النعوت ، لا فرق عندها بين الصالح والطالح . فكلهم فى نظرها خونة أدنياء ظالمون. وكانت « أم حسن » تصغى لحديث شيختها والعجب آخذ منها كل مأخذ ، ولكنها تهيبت أول الأمر أن تعترض عليها فى شىء ، غير أنها ما لبثت أن سألتها فى حذر :

وكيف يكون الصالحون من الرجال خونة ظالمين يا ست الشيخة ؟

ـ لأنهم طماعون لا يشبعهم شىء ، لهم متعة الدنيا ونعيم الآخرة !

ـ وكيف ذلك ؟

ـ يتزوجون فى الدنيا أربعا ، ولهم فى الجنة ما يشتهون من حور حسان !

فاطرقت « أم حسن » وهى تهمهم بقولها :

. . . حور حسان !

ـ هؤلاء اللواتى أجسامهن كالماس ، وشفاههن كالعقيق ! . .

فنظرت « أم حسن » اليها مستطلعة، ثم لم تلبث أن استسلمت لتفكير بعيد . وبعد حين رفعت رأسها وقالت :

والرجل الفاسد ، أيكون له ما يشتهى من حور حسان أيضا ؟

ـ الفاسد مصيره النار ، والنار ليس فيها الا الزبانية والشياطين . .

ولاحظت «أم وحيد» على صديقتها أنها ثائرة النفس مهتاجة الخاطر ، فمضت فى حملتها على الرجال الصالحين تصف لـ« أم حسن » مايستمتعون به فى الحياة الأخرى من ملاذ ، و « أم حسن » مرهفة أذنيها لهـا ، وعيناها تتوقدان . . .

*

وفى المساء عاد « الشيخ غيث » الى داره قبل موعد رجوعه ، وقـد نهكه الجوع ، وهـد قواه . فما كاد يتخطى عتبة الباب حتى استقبله صياح امرأته وهى تناقش خادمتها الحساب،واتجه صوب الدكة وجلس عليها متربعا ، وأخرج سبحته ، وجعل يقرأ أوراده منتظرا هـدوء العاصفة

وظهرت بعد حين « أم حسن » ، ومرت أمام زوجها بلا سلام ولا كلام ، وهى ترمقه بنظرات عامدة ، فدهش الرجل لأمرها ، وابتدرها بقوله :

مساء الخير يا أم حسن !

فأجابته ، وهى تتخايل شامخة الأنف :

مساء الشر يا شيخ النحس !

ـ يا لله ! ما الذى جرى ؟

فلم تجبه ، ونهض الرجل يستوضحها الأمر ، وقد رابته هيئتها ، واقترب منها على مهل يسألها عما بها ، فدفعته بيدها دفعة عنيفة تلقاها الرجل فى صبر وحلم ، وهو يردد قوله :

الله يهديك يا شيخة . . . الله يهديك !. .

وعاد الى الدكة ، واستأنف تلاوة أوراده . وبعد حين تكلمت المرأة فقالت :

أتظن أنى غبية غير مطلعة على أسرارك ؟

فرفع الشيخ رأسه وحملق فيها قائلا :

أى أسرار ؟

ـ أى أسرار ؟ . . عجيبة ! أسرارك الخبيثة يا أستاذ التقوى والصلاح!

ثم أخذت تلعب له حاجبيها ، وهى تقول :

ألا تعرف شيئا عن النساء اللواتى أجسامهن كالماس ، وشفاههن كالعقيق ؟!

ـ نساء ؟ . . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، سلام قولا من رب رحيم !

فتضاحكت بصوت بشع ، وأجابت :

شيطان يسخطك ويسخط أجدادك !

وانبرت تسبه بأقذع الألفاظ وتقذفه بأرذل النعوت ، وهى تحدجه بنظرات ملؤها البغض والقحة ، فنهض الرجل وقصد الى حجرته وهو يغمغم :

أم حسن جاوزت الحد ، لا بد أن يكون قد ركبها الليلة عفريت . .
لا حول ولا قوة الا بالله !

وأقفل وراءه الباب ، وقضى شطرا من الليل قائما يتهجد ، ثم نام بلا عشاء

*

وتوالت الأيام والمرأة على حالها ثائرة ، والرجل مدهوش حيران لا يعرف وجها لهذه الزوبعة التى لا تنتهى حتى تبدأ

وتقاربت زيارات « أم وحيد » فازدادت المسألة تعقدا ، والثورة اضطراما . . وتعددت بينهما الجلسات السرية ، ذوات الهمس والتلميح .

وانتشر فى جو المنزل هدوء خبيث يدوى تحته بركان يوشك أن ينفجر

وتطورت نفسية « أم حسن » فانقلبت من ثائرة صاخبة الى صامتة معتنقة سرها ، وعلى فمها ابتسامة صفراء مروعة . . .

وظل « الشيخ غيث » يعيش فى ذلك الجو الغريب لا يفهم من أسراره شيئا . وكلما أعياه البحث، رفع حاجبيه ومصص شفتيه وأذعن للمقادير

وكان فى المنزل خادمة على شىء من الملاحة تدعى «جليلة» ، جاوزت السادسة عشرة من عمرها ، وكانت تحوم حولها اشاعات غامضة ، وقد أبغضتها « أم حسن » ، واعتزمت أن تطردها ، ولكنها لأمر ما أبقت عليها ، وحبتها بعطفها ، وأسدت اليهـا كثيرا من المنح ، وأكثرت من الخلوة بها . . .

وسافرت «أم حسن» صباح يوم الى أقاربها فى الريف لتقضى أسبوعا، وخرج « الشيخ غيث » كعادته الى عمله اليومى . وقبل الغروب عاد الى داره وهو عاكف على سبحته يتلو أوراده . ودق الباب ، وبعد قليل ظهرت «جليلة» خلفه تفتحه، وكانت مهندمة تامة الزينة ، فابتسمت للشيخ فى نعومة ، فواصل الشيخ سيره غير محتفل بها ، وما كاد يستوى جالسا على الدكة ، حتى جاءت الفتاة فى أثره ، وهى تقول :

سيدى الشيخ . سيدى الشيخ !..

فنظر اليها مستوضحا ، فتقدمت نحوه مطرقة الرأس ، وقالت :

ارقنى والنبى يا سيدى الشيخ !

فبدا عليه التعجب من جرأتها ، ولكنه لم يشأ أن يردها خائبة ، فقال لها وعيناه لا تفارقان السبحة :

ان الرقية الصالحة يا بنية تشفى النفوس وتصلح الأجسام . . اقتربى!

واقتربت « جليلة » من الشيخ حتى كاد رأسها يلامس صدره ، وبدأ الشيخ رقيته فى جد واهتمام . وأتم الرقية على عجل ، وقام من فوره الى حجرته ، فنضا عنه جبته وقباءه ، وارتدى ثياب البيت ، ثم توضأ

وبسط السجادة استعدادا لصلاة المغرب . وما كان أشد دهشته اذ رأى « جليلة » تلج الحجرة فى سكينة حاملة صينية القهوة ، فزوى الرجل ما بين عينيه ، وقال فى شىء من الحدة :

ماذا تريدين ؟

فأجابته فى صوت المستعطف وهى تبتسم :

قهوة العصر يا سيدى

وانتشى الرجل برائحة القهوة الشذية ، ورأى «جليلة» واقفة بجوار الباب تنظر اليه بعين ملؤها الرفق والتأدب ، فلام نفسه على حدته ، وقال :

حسنا فعلت يا جليلة ، هاتيها !

وجلس الشيخ على السجادة و « جليلة » أمامه ، غير بعيدة عنه ، وصبت له القهوة ، وناولته القدح صامتة ، وكان العطر ينفح من شعرها المسدل على كتفيها . ورفع الشيخ رأسه فاستقبلته عينها – عينها الفوارة بحرارة الشباب واغرائه – فنحى بصره عنها مضطربا . وبعد فترة شرعت «جليلة» تتكلم فأخذت تحدث الشيخ أحاديث فيها متعة وسلوى، تتخللها ضحكات لينة ، وحركات فاتنة ، والرجل مصغ اليها يبادلها الكلام ، وهو متحير من أمر نفسه ، لا يدرى أمتضايق هو أم مسرور . ولكن موجة لطيفة أخذت تطفو على شعوره ، وأحس يقظة غريبة بدأت تفتح لها أغوار نفسه ، فنظر الى « جليلة » مبتسما ، وقال :

ألا تعرفين يا جليلة أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يمزح ولايقول الا حقا ؟

فأجابته فى دلال :

وهل يوجد فى الدنيا أحسن من الأنس والمباسطة يا سيدى الشيخ ؟ يقولون ان الجنة نفسها لا تخلو من الحظ !

فأجاب فى حماس :

الجنة يا بنيتى مملوءة بالطيبات !
وتمايل ضحكا
وطالت بينهما المؤانسة والسمر ، وصاح الشيخ دهشا ، وقد طرق سمعه الأذان :
الله ! هذا أذان العشاء ، لقد نسيت أن أصلى المغرب
فابتسمت « جليلة » وقالت :
صل المغرب والعشاء معا يا سيدى الشيخ !
فابتسم لها وأجاب :
الدين يسر لا عسر يا بنية !
ـ والآن سأحضر لك العشاء . انه من صنع يدى !.. سأرى كيف تستطيبه ؟!
ـ اذن أسرعى يا جليلة ، انى جائع
وخرجت الفتاة فى عجلة ، والشيخ يتبعها بنظره ، وبعد حين عادت بصينية الطعام ووضعتها أمامه

*

وأمضى الشيخ مع « جليلة » وقتا من أشهى أوقاته وأطيبها : فكاهات ونوادر ، ومباسطات وضحك... ولما حان ميعاد النوم وتهيأت «جليلة» لمغادرة الحجرة ، قالت له :
أأستطيع أن أطلب منك شيئا يا سيدى الشيخ ؟
ـ طلبك مجاب يا بنية !
ـ أن ترقينى مرة أخرى قبل النوم ، ان رقيتك الأولى فعلت بى فعل السحر
فابتسم الرجل ابتسامة عريضة ، وقال :
تعالى يا جليلة !

ودنت منه الفتاة ، وألقت رأسها الى صدره ، واستقبلته بوجهها ، ثم أغمضت عينيها فى استسلام ... وبدأ الشيخ رقيته ، وهو مضطرب النفس خائر القوى ، وقد شعر بأنفاسها تهب جياشة على وجهه ... وما هى الا أن أحس يديه تطوقان خصرها ، وشفتيه تدانيان شفتيها . .

*

وأطالت « أم حسن » غيبتها فى الريف ، فلم يفكر « الشيخ غيث » فى ارسال كتاب يستفسر به عن سبب تأخرها . وأصبح للمنزل عند الرجل حرمة وعزازة ، فهو مبعث الطمأنينة والراحة ، يقضى فيه الشيخ أويقات الصفاء مع فتاته الحسناء

وأخذت « جليلة » تحتل مناطق تفكيره ، فاذا ما خرج الى عمله تمثلت لعينيه تفاكهه وتعابثه ، وخيل له أن رأسها الصغير الجميل يركن الى كتفه فى دلال ، وأنفاسها تهب على عنقه لينة شهية وهو يرقيها ويلاطفها

ولكن لم يكن هناؤه ليخلو من منغصات ، اذ كانت تعتريه فى الفترة بعد الفترة نوبات ندم وتوبيخ ضمير ، فيعتمد رأسه بيديه ، ويتيه فى التفكير كاسف البال ، يكاد الدمع يطفر من عينيه ... ولكن سرعان ما يسمع من قرارة نفسه هاتفا يقول : « ان الحسنات يذهبن السيئات » . فيكثر من الصلاة وتلاوة الأوراد وتوزيع الصدقات . ومن ثم يعود اليه بشره ، وينفتح للأمل قلبه

وعادت «أم حسن» فاستقبلها زوجها بفتور وتضايق ، ونظرت المرأة حولها فوضح لها كل شىء ، فابتسمت ابتسامتها الصفراء ، ولم تبس بكلمة ، وخلت الى « جليلة » غير مرة وغمرتها بالمنح من نقود وطرف . ولم يمض على ذلك أكثر من يوم حتى راحت تتجنى عليها وتمتهنها بحقير الأعمال ، متخذة فى ذلك شتى ضروب القسوة والعناد

ودخل « الشيخ غيث » ذات مرة الى داره فألفى امرأته و « جليلة » تتشاتمان وتتضاربان ، فهاجم على الفور « أم حسن » ، ودفعها دفعة شديدة طرحتها على الأرض ، ثم قال بصوت عال :

أليس فى قلبك رحمة ؟.. أما سمعت قوله تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر ؟ »

فصوبت « أم حسن » اليه نظرة تجلى فيها الحنق والازدراء . وتركت المكان تتحامل على نفسها وهى ترطم !

أما « جليلة » فرفعت وجهها نحو « الشيخ غيث » ، وقد أشرقت على فمها ابتسامة الرضا وعرفان الجميل . فتقدم الرجل منها مضطرب الحواس ، وتناول رأسها بين يديه المرتجفتين ووسده صدره ، وأخذ يتلو رقيته !

العيون الخضر

منذ عشرة أعوام كان « السنيور كانتونى » يقيم بمسرح « أمبريال » حفلات موسيقية رائعة أيام الأحد قبل الظهر . و « السنيور كانتونى » أستاذ اشتهر بنبوغه فى رياسة الفرق الموسيقية ، واحسانه اختيار القطع التى يعزفها . فكان « مسرح أمبريال » صباح الأحد من كل أسبوع حافلا بنخبة من عشاق الموسيقى

فى ذلك الوقت ، كنت موظفا فى وزارة الخارجية ، ولم يكن لى شغف كبير بالموسيقى الافرنجية ، ولم أسمع عن « السنيور كانتونى » الا عرضا من بعض الأصدقاء . وحدث أن تغيبت عن الوزارة فى يوم من أيام الأحد . فخرجت من منزلى ، ووجهتى « قهوة الشمال » لأحظى بجلسة لطيفة مع صديقى « حمدى » الذى اتخذ له من هذه القهوة محلا مختارا يقضى فيه يومه ، يتصفح الصحف والمجلات ، ويساوم الباعة الجوالين فيما يعرضونه عليه من السلع ، ثم يتثاءب ويتمطى . . .

وما ان لاحت لى القهوة ، حتى رأيت صديقى فى ركنه المعهود ، بصلعته اللامعة ، وكرشه المندلق ، وجرمه الكروى . . .

سلمت عليه ، فأحسن استقبالى ، وجلست بجواره ، وأخذت أسأله عن أخباره ، فجعل يفيض فى سخافاته المسلية ، وأصغيت اليه فى تبلد

وأنا أدخن لفافتى ، وأحتسى قهوتى ، متمتعا بشمس الشتاء التى كانت تغمر المكان بدفئها الجميل

ونظر « حمدى » الى ساعته ، وقال :

ألا تريد أن تحضر حفلة موسيقية بديعة ، يقيمها اليوم « المايسترو كانتونى » على مسرح « أمبريال » . . . لقد حجزت مقصورة هناك . . . ما رأيك ؟

فدهشت، اذ لم يكن « حمدى » من هواة الموسيقى ، ولاحظ دهشتى، فقال :

الله يجازى « سلامون » . . . لقد ورطنى فى شراء التذكرة وأخذ منى ثمنها مقدما

وأخرج التذكرة ، وناولنى اياها ، فنظرت فيها ، فاذا هى للمقصورة الرابعة يمينا . . . وسمعت « حمدى » يقول :

لقد أكد لى « سلامون » أن الحفلة ستكون رائعة ، وأنها ستضم أرقى الأسر ، وأجمل النساء

وابتسم ابتسامته العريضة ، وغمز لى بعينه . وقمنا الى مسرح « أمبريال » ، ودخلنا مقصورتنا ، وجلسنا فيها . وبينما كنت أنظر فى برنامج الحفلة ، همس « حمدى » فى أذنى قائلا :

انظر !

ورفعت بصرى ونظرت ، فاذا بفتاة تدخل المقصورة الثالثة المحاذية لمقصورتنا . وخلفها تابعتها . واتفق أن التفتت ناحيتنا ، فقابلت عيناها عينى . وجلست الفتاة والتابعة بجوارها ، وأخذتا تنظران فى البرنامج

وبدأت الموسيقى تصدح ، فأصغيت اليها مهتما ، وكانت القطعة التى يعزفونها تسمى « البستان » ، ولم ترقنى فى البدء ، اذ وجدتها خالية من التناسق والنغم الحلو . واختلست النظر الى جارتى ، فوجدتها تستمع فى نشوة وصبوة ، فازددت اصغاء ، وصبرت للنغمات الغربية أريد أن

أتذوق منها شيئا . واستمرت الموسيقى تصف لنا « البستان » . ولبثت مرهف السمع ، شاخصا كل الشخوص الى الفتاة . ومر الوقت وأنا على حالى هذه ، واذا بى أشعر بشبه غيبوبة لذيذة تستحوذ على . . .

وبدأت تتفتح أمامى عوالم مشرقة ، وأحسست كأنى أسبح فى الهواء بأجنحة من حرير . واختفى كل شىء حولى سوى هذه الفتاة . كنت أرى فى عينيها الخضراوين ذواتى الأهداب الطويلة ظلال البساتين ، وفى قوامها اللدن مرونة الأغصان ، وفى ثوبها ذى الألوان الزاهية سحر الأزاهر وعطرها الشذى

وبغتة سمعت تصفيقا يصم الآذان، فتنبهت ، فاذا بى لم أحول نظرى عن الفتاة . وسمعت « حمدى » يقول :

لقد حاولت عدة مرات أن ألفت نظرك الى بعض المقاصير اذ تجلس آنسات فاتنات ، فلم أفلح . هيا ! ألا تريد أن تتعرف الى بعضهن ؟ « سلامون » مستعد ، انها فرصة ، يجب ألا تضيعها

فقلت له هامسا :

اذهب وحدك !

وخرج من المقصورة ، ومرت بائعة الأزهار ، فاستوقفتها واشتريت منها زهرة ، وجعلت أشمها طويلا ، ثم شبكتها فى عروة سترتى . . . ورأيت جارتى توقظ تابعتها التى كانت مستسلمة لنوم عميق ، وأخذت تحدثها فى حرارة عن جمال الموسيقى . . . يا لله ! شد ما كانت رائعة فى نشوتها !

وعادت الموسيقى الى العزف ، وعدت أنا وفتاتى الى الاصغاء . وسألت نفسى : كيف أضعت عمرى حتى اليوم بعيدا عن هذا الجو السحرى الخلاب ، عالم الموسيقى والفن ؟ . . أى دنيا تلك التى أعيش فيها الآن ؟

وانقضى الوقت ، وقامت فتاتى تتأهب للخروج . كان كل شىء فيها يبتسم . ورأتنى واقفا فى مقصورتى فى ركن يغمره الظلام ، أراقبها

صامتا . فلفتت رأسها فى حركة بديعة ، تموج على أثرها شعرها المتهدل على أكتافها ، فأحسست كأن سهما مريشا اخترق قلبى فى تلك اللحظة
ونظر الى « حمدى » فوجدنى أشم « الزهرة » وأنا واقف أراقب الفتاة ، وهى تشق طريقها بين الناس
فدنا منى ، وهمس فى أذنى ، قائلا :
تعال نتأثرها
فنظرت اليه طويلا نظرة اشفاق ، ولاطفت كتفه متحسرا . . .

*

وانقضى أسبوع ، وحل يوم الأحد ، فقصدت من فورى الى « قهوة الشمال » ، ورأيت « حمدى » فى ركنه الدائم ، يساوم فى ثمن أقة من الموز . فأخذته من ذراعه ، وقلت له :
تعال !
ـ الى أين ؟
ـ تعال وكفى !
وتركنا بائع الموز مبهوتا ، وقصدنا الى مسرح « أمبريال » فالتفت الى « حمدى » وقال :
ما معنى هذا ؟
ولمح التذكرة فى يدى ، فقال مغمغما :
المقصورة الرابعة يمينا ؟
وجلسنا فى المقصورة ، وسمعت صديقى يقول :
ليس لى ولوع بالموسيقى ، فلم أتيت بى الى هنا ؟
ـ ألا يعجبك هذا الملهى الفخم ، بأنواره المتلألئة ؟ ألا يروقك هذا الجو المشبع بعطر المرأة الفاتنة ؟ ألا . . .
ورأيت فى هذه اللحظة باب المقصورة الثالثة ينفتح ، وتظهر «الفتاة» .

دخلت فى خطوات رشيقة ، وخلفها تابعتها تجر نفسها مجهودة الأنفاس من الاعياء

كانت فتاتي ترتدي ثوبا غير ثوبها الذى ارتدته فى الأسبوع الماضى، لونه يماثل لون عيونها الخضر . وكان شعرها الهفهاف دائما على أكتافها معصوبا بشريط حريرى من لون ثوبها

لمحتنى ، فابتسمت ، وجعلت تنظر فى البرنامج . . . وسمعت «حمدى» ينفخ ، ويحتج على اهمالى الاجابة عن أسئلته . وبعد هنيهة شعرت به يشرب من كوب بجواره ، وشممت رائحة «الويسكى» تفوح من ناحيته

وبدأت الموسيقى تعزف ، وكانت القطعة : « أنشودة الرعاة » . شعرت بكل شيء يتضاءل حولى . واذا بى أرى قطعان الغنم ترتع هادئة فى الحقول ، والراعى جالسا بجوار الجدول ، متفيئا ظلال شجرة هرمة، يعزف على مزماره ألحانا ساذجة شجية !. . وهب على عطر الحشائش المبللة بالندى ، وشاهدت قروية فاتنة تظهر بجوار القطيع ، كانت تبتسم لى وأبتسم لها ، ونغم المزمار يملأ آذاننا ، ويلمس شغاف قلوبنا ، وعيناها الزاخرتان بكنوز الأزاهر تسكب نورها الفياض فى عينى . . .

وضج الملهى بالتصفيق . . . ورأيت نفسى أحدق فى « فتاتى » وتحدق فى . . . وكانت فترة اختلاج وارتباك !

وازددت تعلقا بحضور حفلات«السنيور كانتونى» أعد أيام الأسبوع يوما يوما ، مترقبا بفروغ صبر حلول « الأحد » . ولما كنت أخلو بنفسى ـ وكثيرا ما كنت أتعمد هذه الخلوة ـ أستعيد ذكرياتى الموسيقية ، كانت تتراءى لى دائما تلك العيون الخضر بأهدابها الطويلة ، فأقضى الوقت فى صحبتها حالما . . . وكنت أقابل « حمدى » مساء السبت ، فأمسك يده ، وأشد عليها ، وأنا أقول :

غدا يوم الأحد يا حمدى . . . يوم حافل ببرنامج عظيم

فقال لى مرة ، وهو ينظر الى فاحصا :

أتراك تذهب من أجل الموسيقى ، أم من أجلها ؟!

فقلت له على الفور :

وهل هي والموسيقى شيئان مختلفان ؟ انها لحن الوجود ، لحن الأبدية العظيم !..

فمص شفتيه ، وهز رأسه ، وقال :

ربنا يشفيك !

فضربته على كتفه ، وأنا أقول :

يا لك من حيوان عظيم يا حمدى ، ولكنك حيوان طيب القلب ألوف !

*

وأصبح لمسرح « أمبريال » حرمة وكرامة عندى ، فحينما كنت أدخله أشعر بأنى انتقلت الى جو جديد ، كله سحر وأسرار . والتفت حولى أغذى ناظرى بما يحويه من أثاث وزخرف . فهذه أعمدته الضخمة ذوات النقوش المذهبة ، وسقفه ذو القبة العالية المرصعة بالأضواء المختلفة ، ومقاعده الواسعة المريحة التى تشبه العروش ، كل هذا كان يثير حولى جوا من أجواء الأساطير ، فيخيل لى أنى أعيش فى قصر « شهرزاد » !

وكنت دائما أحجز المقصورة الرابعة اليمنى ، أجلس فيها مترقبا حضورها ، و « حمدى » بجوارى ينهمك فى شرب « الويسكى » . فاذا ما حل الميعاد ، رأيتها تدخل المقصورة الثالثة ، تتلفت حولها فى ابتسام حلو ، وشعرها المسترسل على أكتافها يتموج على ظهرها تموج الغدران الهادئة . وكانت أثوابها تحوى دائما فتنة البساتين ، وعيونها الخضر تشع بنور الرياض . وتصدح الموسيقى ، فتنقلنا الى عالم الأحلام ، تسبح فيه ونحن نتناجى ونتشاكى ونتبادل الابتسام !

لم أبادلها كلمة واحدة ، لم أسمع صوتها الا همسا وهى تحدث

تابعتها . لم يخطر بفكرى أن أعلم من هى ، والى أية جنسية تنتسب ، وأين تسكن؟ . . مالنا ولهذه العروض السخيفة ؟ ألسنا متحابين وكفى؟!

ومرت الأيام، وأنا وفتاتى نعيش معا فى ذلك العالم السحرى الجميل، حتى انتهت حفلات « السنيور كانتونى » ، فافترقنا . وكان هذا آخر عهدى بها !

أما « السنيور كانتونى » فرحل بفرقته الى بلده ولم يعد . واختفت على أثره تلك الحفلات الشائقة التى أمتعتنا بفنها الرائع العظيم . وهدم مسرح « أمبريال » وأقيم مكانه صرح عظيم . . . »

*

والتفت الينا راوى القصة ، وكنا مجتمعين حوله ، ننصت فى اهتمام . وقال فى صوت لين حنون :

« وتتابعت بعد ذلك الأيام والشهور والسنون . وها قد مضت عشرة أعوام كاملة على آخر حفلة أقامها « السنيور كانتونى » وقد تغير الشىء الكثير من نفسيتى وأسلوب حياتى، ومحيت من رأسى ذكريات جمة ، الا ذكريات « العيون الخضر » فانها ظلت كامنة فى أعماق قلبى ، أشعر بها من حين الى حين تتسلل خارجة من مستقرها تبعث حولها أحلام الماضى الجميل . . .

وكثيرا ما اشتبه على الأمر ، وخيل الى أن كل ما وقع لى مع «فتاتى» لم يكن غير أحلام . . . أحلام رأيتها فى النوم ! ولم لا يكون ذلك ؟ انها أقرب الى «الفكرة الرائعة» منها الى الآدمية التى هى من لحم وعظم . حتى « حمدى » ذلك الأثر المادى الذى كان يربطنى بعالم الجماد ، قد مضى هو الآخر ، وعفا أثره، وأصبحت شخصيته أقرب عندى الى شخصيات الأساطير ! . . »

وأخرج صديقنا علبة لفائفه ، وقدم لكل منا واحدة ، فأخذنا ندخن وقد غمرنا صمت عميق . . .

بحبوش

« فضلى بك » رجل أعزب من أصحاب الأملاك ، له وجـه محتقن مغضن ، ومشية صلبة ، يبلغ الستين من العمر ، ويعيش مع ابنه «محيى» فى حى « الحلمية » . . . هو بطل من أبطال القهوات ، له محل مختار فى « قهوة الامتياز » يقصده عصر كل يوم، يقضى فيه بضع ساعات مع رفاقه يتسامرون ويتلهون بلغو الحديث ، ويطالعون الصحف. ثم يقومون الى مجالى الأنس والطرب ، فيقضون فيها السهرة . . . وجماعة « فضلى بك » يعتبرون أنفسهم من السراة الأماجد ، فهم يشربون فى غير سكر ولا عربدة ، ويقامرون فى غير تهور ولا سرف ، ويضحكون وينكتون فى وقار ، ويسيرون متهادين فى عظمة . وهم يكونون كتلة متحدة متضامنة، لا تتفرق الا اذا انتهت السهرة ، وعاد أفرادها كل الى منزله

و « محيى » هو الابن الوحيد ا « فضلى بك » ، شاب يبلغ الخامسة والعشرين، موظف فى احدى الوزارات ، لا يتميز فى المواهب عن رفاقه بشىء . وهو يعيش عيشة من فى سنه من الشبان الميسورين ، له غرام خاص بالسيارات ، يشترى ويبدل منها كل عام وفق هواه . يحبه أبوه حبا كبيرا ، ويعطيه عن سعة بلا حساب . فخور به ، يرى فيه درة فريدة فى الذكاء والجمال والظرف . وله حكايات عنه لا ينضب لها معين ،

يحرص على روايتها ، فلا يفنأ يقصها على أصدقائه ، ويعيدها عليهم فى حماس شديد

وا « محيى » كلب اسمه « بمبوش » هجين بين الكلاب الأصيلة . ولكنه محبوب مدلل من سيده ، يركبه معه السيارة فى نزهاته ، ويطعمه من أكله ، ويعنى بنظافته عناية تفوق الوصف ، ويعد له مكانا خاصا لنومه . وكان الأب يكره الكلاب ، ولكنه ـ اكراما لابنه ـ قبل ذلك « الدعى » فى منزله على شىء من الاستياء . وكان « محيى » يلاحظ أن أباه لا يحب « بمبوش » ، فيعتب عليه ، فيضطر الأب الى ملاطفة الكلب وتدليله !..

*

وحدث يوما أن خرج «محيى» فى سيارته الجديدة ، مع ثلة من رفاقه ، لرياضة ليلية فى الضواحى . وكان الجمع سكارى ، و « محيى » يقود السيارة بنفسه . وتهور فى السير ، فصدمه عمود من أعمدة « الترام » صدمة أودت بحياته ، وجرح رفاقه جراحا بالغة ...

وكانت فاجعة أليمة كادت تقضى على الأب ، فبكى ابنه طويلا ، وبالغ فى لبس السواد عليه ، واعتكف فى منزله ، لا يخرج منه الا الى المقبرة لزيارة ضريح ابنه الفقيد . وكان يغالى فى الاحتفاظ بكل ماتركه « محيى » فأبقى على حجرته كما هى ، يأمر الخدم بتنظيفها واقفالها ، فكأنه يعدها ليوم أوبته . وعطف على « بمبوش » عطفا كبيرا ، فكان يطعمه بنفسه ويعتنى به ، ويقضى الساعات الطوال وهو فى صحبته ، ينظر اليه بعيون مخضلة بالدموع ، ويقول له :

لقد كنت حبيب ابنى يا بمبوش ، وحبيب ابنى حبيبى !

ويقبل على الكلب يحتضنه ، ويقبله فى حنان بالغ ، والكلب ينظر اليه فى حذر وتعجب !

ولم تمض أيام حتى نقل « فضلى بك » الى حجرته « بموش » ، وأعد له فراشا وثيرا تحت سريره

وشعر الرفاق بتفكك الكتلة على أثر اعتزال « فضلى بك » حياة القهوة ، فعز عليهم الأمر ، وقصدوا الى صديقهم يعتبون عليه فى هجره اياهم ، وأخذوا ينصحون له فى رفق وثبات أن يخرج من محبسه ، ويستعيد معهم حياته السابقة . وكلمه أحدهم قائلا :

لم قضيت على نفسك بهذه الحياة المؤلمة ؟ كل انسان مصيره للموت ، والحى أفضل من الميت . . . فهل تريد أن تقضى على نفسك ؟!

فأجاب « فضلى بك » فى مرارة :

لقد فقدت بفقد ابنى كل شىء فى الحياة !

فأجابه آخر :

دع المرحوم جانبا . . انه فى الجنة ونعيمها . . ولكن للحى حقوقا على نفسه ، فاتق الله فى أعمالك !

وأتى « بموش » فى هذا الوقت ، وجعل يتمسح بسيده ، فأخذه « فضلى بك » على ركبتيه ، وجعل يلاطفه فى حنان ، وقال :

هذا هو رفيق وحدتى وأحزانى ، كلما رأيته تذكرت ابنى الغالى . . آه يا بموش ، شدما كان يحبك محيى وشدما أحبك أنا اليوم ؟!

وتقدم صديق ثالث ، فأخذ الكلب من « فضلى بك » ، وأنزله الى الأرض ، وقال فى حزم وارادة :

لا بد من ذهابك معنا الى القهوة اليوم !

وتألبت عليه الجماعة ، وأحاطت به ، وهى تقول فى صوت واحد :

لا بد من ذهابك معنا الى القهوة اليوم !

وبدءوا يباسطونه ويماجنونه فى الحديث ، وهم يجذبونه يحاولون اخراجه معهم الى القهوة . . . وأخيرا انفرجت شفتا « فضلى بك » عن ابتسامة ضئيلة ، ما كاد الاخوان يلمحونها حتى ضجوا بالهتاف . واتسعت

الابتسامة ، وازداد التهلل والبشر . . . وأخيرا خرج « فضلى بك » مع اخوانه ، وهو ما زال مترددا !

لم يطق « فضلى بك » أن يمكث فى القهوة أكثر من نصف ساعة ، عاد بعدها توا الى منزله ، فاستقبله « بمبوش » بترحاب كبير . وأخذه الرجل بين يديه ، وقال له فى ملاطفة :

لا تظن يا بمبوش أنى خرجت برضاى . . . لا والله ! انهم أخرجونى قسرا ، ولكنى لم أمكث الا قليلا ارضاء لهم ، وها قد عـدت اليك ، وأتيت لك معى بحلوى لذيذة جدا . . انظر . . الله ! . . ما ألذ طعمها !

ومد له يده بالحلوى ، وأخذ يطعمه اياها ، وهو يقول :

خذ يا حبيبى خذ . . . كل بالهناء والشفاء !

*

وتكررت زيارة الرفاق لمنزل « فضلى بك » وتكرر خروجه معهم الى القهوة . ولان الرجل ، وتخاذلت معارضته لهم ، وشعر فى صميم قلبه بشىء من الراحة ، وأحس أحزانه تتضاءل رويدا رويدا ، واعتقد حقيقة أن للحى حقوقا على نفسه يجب ألا يهملها . . .

ومرت الأيام ، ولم يعد « فضلى » يحتاج الى زيارة اخوانه للخروج معهم الى القهوة ، بل تشجع وخرج بنفسه ، واتصل بالكتلة مستأنفا عهده الماضى ، واندمج فيها كما كان من قبل . وعادت الحياة القديمة تزاحم الحياة الجديدة وتتغلب عليها تدريجا !

وحينما كان « فضلى بك » يعود الى منزله ، يعتريه ضيق ، واذا خطرت بباله ذكرى ابنه ، ثار ساخطا ، ولكن لا يلبث أن يستغرق فى وجوم غريب ، فيعنف نفسه ويبكتها ، ثم يأمر فى الحال أن يذهبوا الى المقبرة ويوزعوا الصدقات على روح ابنه !

واذا ما رأى «بمبوش» وقف أمامه ، وهو متكلف اللطف ، وقال له :

يخيل الى أنك غير مسرور يا بمبوش ... عينــاك تنطقان بذلك ، ولكن لماذا ؟ ألا أطعمك من طعامى ؟ ألا أرقدك تحت سريرى ؟ ألا أحضر لك الحلوى دائما ؟ فمم الشكاية يا منكر الجميل ؟!

ويمسك أذن الكلب ، يريد مداعبتها ، فيشدها شـدا عنيفا ، فيعوى الكلب ، ويجرى هاربا ... ويهمهم « فضلى بك » قائلا :

حقا لقد أصبحت لا تحتمل ... لعنة الله عليك !

وكان الفقيه يأتى كل صباح يقرأ ما تيسر من القرآن ، على روح المرحوم ، فتخيم على المنزل غمامة سوداء من الحزن ، ويتراءى لـ «فضلى بك » ـ وصوت الشيخ يرن فى أذنه ـ شبح ابنه مضرجا بدمه ، ثم صورة نعشه المغطى بالحرير الأبيض ، المزركش بالزهر ، وهو يتهادى أمام المشيعين ... فيقضى فترة الصبح وهو مهموم منكد العيش يرزح تحت عبء ثقيل ، ويشعر كأن يدا منشبة أظفارها فى رقبته تريد خنقه !

وفى يوم من الأيام ، صدر الأمر للفقيه أن يذهب الى المقبرة ليقرأ الراتب اليومى هناك ، بدلا من قراءته فى المنزل . وظن « فضلى بك » أنه سينعم بشىء من الراحة بعـد اختفاء القارىء . ولـكنه أخطأ فى تقديره ... لقد كان يعيش فى دار كل ركن من أركانها محمل بشتى الذكريات المؤلمة : هذه حجرة فقيده أشبه بقبر صامت مهيب ، وهذا مثوى السيارة القائم بجوار الباب ، وقد تحول اليوم الى مخزن للمهملات ، ألا يخيل لـ « فضلى بك » أنه يسمع منه فى هدأة الليل صوت البوق يشبه نباح الكلاب ، فيتوهم أن ابنه عائد الى الدار بعد انقضاء سهرته ؟.. لقد كان جو المنزل مشبعا برائحة الموت والفناء !

*

واعتزم « فضلى بك » أخيرا بيع منزله ، والسكنى فى «مصر الجديدة»

بدعوى أن صحته مضمحلة ، وأن الأطباء نصحوا له بأن يسكن ضاحية يتوافر فيها جفاف التربة وطلاقة الهواء

واختار مكانه الجديد مغنى * صغيرا تحيط به حديقة جميلة وجد فيه ضالته المنشودة. وبدأ يحس فيها انقلابا فى نفسيته ، فكل شيء يدعو الى البهجة والارتياح . . .

ولكن : « بمبوش » !.. ان مرآه يثير أعصابه . . . فليأخذ الكلب مكانه اذن فى الحديقة ، وليربط بعيدا بجانب مرقده !.. أليس هو الا كلبا ؟ فما معنى أن يبقيه فى حجرته ، ويرقده تحت فراشه ؟.. ليس فى ذلك ظلم له ، ان الظلة الجميلة النظيفة التى أعدت لبقائه فيها يحسده عليها أسعد الكلاب ، وان وعاءه مملوء دائما بأشهى الأطعمة ، فماذا يبتغى له أكثر من ذلك ؟!

وكان كلما خرج « فضلى بك » من الدار ، أو عاد اليها ، رأى الكلب قد أطل من ظلته ، وأخذ ينبح نباحا عاليا ، فيضطر أن يذهب اليه ويلاطفه . . . وارتأى الرجل أن يغير طريقه الى الباب ، وأن يتسلل وهو خارج أو داخل فى خطوات اللص الحذر ، ونجح فى حيلته ، فلم يستطع الكلب أن يتنبه له . . . واطمأن بذلك « فضلى بك » ، وظن أنه قد تخلص من المضايقات !

ولكنه ذات مرة ، بينما كان يغادر الدار وهو ملتفت يمنة ويسرة خشية أن يفطن الكلب لوجوده ، سمع بغتة « بمبوش » وقد أخذته سورة الغضب ، ينبح نباحا حادا مفزعا ، فأحس « فضلى بك » قدميه قد تسمرتا فى الأرض ، وكأن غلا من الحديد يقيدهما. وتابع الكلب نباحه فى الحاح كأنه يوبخ سيده على ضعف عنايته به ، وهربه منه ، وربما كان هذا النباح ينطوى على معنى من معانى الشتم والتعنيف . . . ففلى دم

---

* « فيلا »

« فضلى بك » وهرول الى الكلب ، ورفسه رفسة قوية جعلته يعوى عواء شديدا ، فلم يأبه له الرجل ، وانطلق يسبه وينعته بأرذل النعوت . ثم ترك المنزل ، وعواء الكلب يدوى فى أذنيه ، وقد شعر أنه أصبح بعد هذه الوقعة حرا ، يدخل المنزل أو يخرج منه فى أى وقت يشاء ، ومن أى مكان يريد ، غير مكترث بشىء !..

الا أنه ما كاد يسير الى منتصف الطريق ، حتى أحس هما طارئا يزدحم ويتكاثر فى قلبه ، ما لبث أن أسلمه الى تفكير عميق . . . فخفف من سيره ، وأزاح طربوشه الى الوراء ، وطأطأ رأسه . . . وما هى الا أن عاد الى داره ، وذهب توا الى « بمبوش » يلاطفه ويقبله ، ويقول له :

سامحنى يا بمبوش . . . لقد أصبحت سيىء الأخلاق ، ولكنى أعدك أن أكون طيبا معك !

وكان الكلب ينظر اليه فى دهش ممزوج بذلة وحذر ، وأمر «فضلى بك» أن يأتوا له بكعكة على الفور ، فما أحضروها حتى جعل يلقمه اياها قطعة قطعة !..

*

وتلاحقت الأيام . . . واستيقظ « فضلى بك » ليلة من نومه على نباح « بمبوش » فطار صوابه ، ونزل من ساعته الى الحديقة يجرى ، منفوش الشعر ، وقد تحول وجهه المغضن المحتقن الى سحنة حيوان مفترس ، وتناول فى طريقه هراوة ضخمة . وما ان رآه الكلب على هذه الحالة حتى فزع وقبع داخل ظلته ، ولكن « فضلى بك » شده الى الخارج ، وهوى عليه بالضرب المبرح ، حتى حطمه تحطيما !

وعاد « فضلى بك » الى حجرته ، واستلقى على فراشه ، ثم استغرق فى نوم مريح لم يستمتع بمثله طول حياته !..

بسمة اللبنانية

فى شمال لبنان ، حيث الطبيعة محتفظة بجمالها الساذج ، تقع بلدة « بهنس » على سفح جبل وادع وقور ، يمتد تحت أقدامها واد عريض مدرج ، تزهو ألوانه فى تآلف بهيج ...

وفى الطرف الشرقى للبلدة يقوم « فندق الشمال » على شبه ربوة صغيرة ، تراه من بعيد يعلو برأسه ، ويفتح جناحيه يستقبل الهواء ، كأنه نسر عظيم على أهبة الطيران !

فى أصيل يوم من أيام أغسطس ، ظهرت سيارة أمام الفندق قادمة من « بيروت » ولم تكد تقف حتى قفزت منها فتاة ، وأخذت تضحك بلا تكلف قائلة :

كأننا آتون من الصحراء ... انظرى يا عمتى الى السيارة ، أكاد لا أتبين لونها تحت الغبار !

ونزل السائق وهو ينفض التراب عن ملابسه، ويمسح شاربه الغزير المعفر ، وبدأ يحل حقائب المتاع المشدودة خلف العربة

ولم يلبث باب السيارة أن انفرج عن رأس العمة ، وهى تقول :

ألا تساعديننى فى النزول يا بسمة ؟

فلم يجبها أحد ، فأخذت تكرر قولها ، ولكن بلا جدوى ، فصرخت غاضبة :

أين أنت أيتها اللعينة ؟ ألا تسمعين صوتى ؟

وأقبل السائق استجابة لصراخها ، ومد لها يده ، ليساعدها على النزول ، فقالت له :

أين الفتاة ؟

ـ لقد ذهبت الى الغدير تغسل وجهها . . .

فاحمر وجه السيدة ، ودمدمت :

الى الغدير تغسل وجهها ؟! . .

ونزلت من السيارة متكئة على ذراع السائق ، ثم أجالت بصرها هنا وهناك ، وأخذت تصيح :

بسمة . . بسمة . . يجب أن تحضرى فى الحال !

وظهر رجل يلبس الحلة الافرنجية والطربوش الطويل ، وتقدم من السيدة بوجهه الباش ، وقال لها ، وهو يدعك احدى يديه بالأخرى :

لا شك أن السيدة هى مدام صفير . . لقد وصلت الينا رسالتك منذ يومين ، وقد حجزنا لجنابك أفخر حجرة فى الفندق . . . حجرة ممتازة لا يمكن أن تجدى لها مثيلا فى لبنان كلها . . أما الأكل فكونى مطمئنة يا سيدتى ، اننا ندفع للطباخ . . .

فقاطعته السيدة ، وقالت محتدة وهى تشير الى ناحية الغدير :

انظر . . . ألا ترى هناك فتاة وقحة ترمى الأطفال بالماء ؟ جرها من أذنها ، وأحضرها هنا فى الحال !

فنظر الرجل مدهوشا الى السيدة ، ثم جرى نحو الغدير ، وقال للفتاة فى رفق ، وهو يبتسم :

ان السيدة غضبى ، وهى تطلب حضورك فورا !

فكانت اجابة « بسمة » على قوله هذا أن رشته بحفنة من المـاء ، اضطرته أن يلوذ بالفرار !

*

كانت « بسمة » من بنات الجبل ، نشأت فى قريتها العتيقة : « ضهور المرج » حيث قضت طفولة مرحة هنيئة . وفى العاشرة من عمرها هبطت مع عمتها « بيروت » بعد أن استقر الرأى على الاقامة فيها . وكان أبوها قد نزح عن وطنه مع النازحين ـ بعد وفاة أمها ـ فى مغامرة مجهولة الى « الأرجنتين » . . .

ومرت الأعوام ، وكبرت طفلة الأمس ، فأصبحت فى السادسة عشرة ، ولكن حياة الحضر لم تغير شيئا من نفسها . فعيناها الزرقاوان كان فيهما دائما صفاء الغدير ، ووجهها المورد الذى لا يعرف المساحيق كان فيه اشراق الأزاهر ، ولهجتها المرحة فيهـا زقزقة العصافير ، ومشيتها الرشيقة فيها خفة النسيم . . كل شىء فيها كأنه يصف الطبيعة: الطبيعة الساذجة الطروب !

وأقامت « بسمة » فى « بيروت » لم تبرحها حتى صيف هذا العام . فلأمر ما رأت العمة أن تذهب بابنة أخيها الى أعالى «لبنان» حيث تقضيان فى « فندق الشمال » بضعة أسابيع . . .

*

فى اليوم التالى لحضور «بسمة» خرجت فى الصباح المبكر من الفندق، تستقبل نسيم الجبل المنعش برئة عطشى ، وتنظر الى الربا من حولها ، والى الوديان الممتدة تحت أقدامها ، نظرة كلها افتتان وغبطة . وقـد بدأت تحس شيئا يتموج فى قرارة نفسها يحرك أوتار قلبها . . . شيئا مفعما بالذكريات اللذيذة !

خرجت « بسمة » تستوضح البلدة ، وغابت وقتـا ، ثم عادت الى

الفندق ، ووجهها تكسوه نضرة الصحة والابتهاج . وارتمت فى حضن عمتها ، وهى تقول فى نفس متقطع :

لقد طفت بالبلدة يا عمتى ... طفت بها كلها !

فقالت لها عمتها فى لهجة عتاب وتأنيب :

بمفردك ؟

فقالت « بسمة » على الفور :

وهل كان على أن أستصحب أحدا ؟ انى أعرف هذه المواطن من زمن بعيد !..

فنظرت اليها عمتها نظرة المستريب ، وهمست :

تعرفينها من زمن بعيد ؟..

وتكلمت « بسمة » فى لهجة الحالم ، وعيناها تائهتان ، وفمها مفتر عن ابتسامة غامضة :

كنت أطوف بالقرية ، فكأننى أطوف بقريتى القديمة : ضهور المرج ... لقد ذهبت الى الربوة ، وشربت من النبع ، ثم هبطت الى الميدان ... فرأيت الشيوخ يدخنون النارجيلة ، والفتيان أمام الدور يقطعون الخشب ، والنساء يهيئن الطعام ... هناك اندمجت بين الرفاق ، وانسرحنا خلال المروج نلهو ونمرح ونشن الغارة ... نعمت بكل مظاهر الحياة التى كنت أنعم بها فى مهد صباى ، وملعب طفولتى !..

وقامت « بسمة » بغتة ، وقالت متلهفة :

آه يا عمتى ... ما أسعدنى هنا !

*

وكان الفندق قبل حضور « بسمة » يتثاءب فى خمول ، فالبعض من نزلائه جالسون وهم ممسكون بكتبهم المفتوحة ، على حين تحدق عيونهم فى الأفق البعيد ، والبعض الآخر مجتمع فى حلقة يشرب « العرقى » فى تبلد ...

فما ان ظهرت الفتاة بينهم حتى عصف الجـو ، واستيقظ المكان ، وضج بالصياح والضحك ، وفاضت الوجوه بالنشاط ، ولمعت الأعين بالبهجة . وشوهدت السراويل البيض والقمصان الرياضية المفتوحة الصدر القصيرة الأكمام تروح وتجيء بلا انقطاع !

. . . وامتدت الحركة ، حتى عمت القرية وضواحيها ، ففي كل يوم تخرج « بسمة » مع صويحباتها وأصحابهـا ، مترجلين ، أو راكبين الحمر الريفية العارية عن اللجم . يطوفون بالبلدة ، ويزورون البساتين والأحراج المحيطة بها ، يغنون ويضحكون ويتصايحون . وهم أينما مروا تركوا وراءهم جذوات سحرية مما يتقد فى نفوسهم اللاهية . . .

وكان أحب الأمكنة الى « بسمة » جهة « شنتورين » التى تبعد عن « بهنس » مشى ساعة على القدم ، وهى ضيعة أو شبه ضيعة ذات أربع دور ريفية . وبالقرب منها دير هادىء يحيط به بستان جميل.

وأطيب بقعة لـ « بسمة » فى « شنتورين » صخرة عظيمة ناتئة فى جبهة الجبل ، مطلة فى عظمة وجرأة على الوادى السحيق تحت أقدامها ، فكثيرا ما قصدت اليها الفتاة مع صحابها لتماجن الأخطار على حافتها . ثم تقف لتصغى فى سرور يماثل سرور الأطفال لصدى الصيحات ترددها جوانب الجبل فى نغمات شتى . . .

وكانت « بسمة » تشد الى الحافة واحدا من الرفاق ، ثم ترنو فى طرب شديد الى ما تحت أقدامها . وتقول لصاحبها والابتسامة لاتفارق ثغرها :

انه لشعور رائع حقا ذلك الذى يحسه المرء وهو يهوى الى القاع !

فينظر اليها الرفيق فى عجب ، وهو يؤخر رجليه محاذرا ، ثم يجيبها متضاحكا :

حقا انها لميتة بديعة . . . ولكنى لا أطلبها لنفسى !

ومرت الأيام ... و « بسمة » وصحابها يعيشون عيشة المرح والسذاجة بين أحضان الطبيعة الحنون

وذات مساء ، بينما كان سكان الفندق ـ ومعهم « بسمة » ـ مجتمعين كالعادة اجتماعهم الأخوى فى الشرفة الكبيرة ، يروون القصص ، ويتطارحون النوادر ، منتظرين العشاء ، اذ أقبل عليهم صاحب الفندق ، وأعلن لهم قدوم ضيف جديد ...

وظهر شاب أنيق الملبس ، رشيق الحركة ، بوجه أسمر جذاب . فانحنى أمام الجمع ، وقال :

أقدم اليكم نفسى ... يوسف فاخورى ، لبنانى المولد والنشأة ، ومن سكان أمريكا الجنوبية بعد . والآن نزيل فندقكم العامر بضعة أيام ...

فصاح الحاضرون :

أهلا وسهلا بالصديق الجديد ...

وقال صاحب الفندق :

ان « الخواجه يوسف فاخورى » ليس شخصا عاديا ، هو فنان عظيم يسحر القلوب بغنائه وعزفه على « الماندولين » ...

وبعد العشاء أقيمت حفلة ساهرة تكريما للضيف الفنان ، فاجتمع النزلاء فى البهو الكبير ، وجلسوا شبه حلقة ، أمامهم زجاجات « الشمبانيا » التى تبرع بها رب الدار ، وأطفئت المصابيح ، ما عدا مصباحا خافت الضوء ترك فى أحد الأركان المنزوية ... وظهر « يوسف فاخورى » بغتة فى وسط الحلقة ، كأنه جنى شق طريقه من جوف الأرض ، فدوت القاعة بالتصفيق . وكان مرتديا حلة لبنانية فاخرة من الحرير والمخمل ، لمعت فى الظلمة التماع العيون البراقة . وبعد أن انحنى مسلما فى خفة ، وقف يداعب « الماندولين » استعدادا للغناء والعزف ، فعم القاعة صمت عميق ... وبعد لحظات سمع الحاضرون لحنا عذبا

خافتا ، ثم جعل يتعالى ونغمات « الماندولين » ترافقه وتجيبه فى انسجام جميل . . . كانت أغنية لبنانية قديمة مما يغنيه سكان الجبال ، يتجاوب فيها الحنين للوطن ، وتتراءى فى جوانبها أحلام الماضى البعيد ، وتغمرها سذاجة الحياة . . .

وأنصتت « بسمة » الى الأغنية وعينها رانية الى الفنان . وقد بدأت تحس أن أصابع سحرية خفيفة امتدت الى قلبها ، وجعلت تعبث بنياطه عبثا أثار فيها شجوا وحنينا ، لم تشعر بهما من قبل فى سابق حياتها . . .

ودوى المكان بالتصفيق ، فبوغتت « بسمة » واستيقظت مرتاعة ، وهى تتلفت حولها . وخيل اليها أنها كانت على ربوة عالية تحيط بها أشجار الصنوبر العتيقة ، تصغى فى هدوء واطمئنان وعذوبة الى صوت سماوى يغنى لها ألحان الجدود . ثم انتزعتها فجأة يد قوية ، وألقتها بين أحضان ذلك الجمع الهائج المائج !. .

وقام الجمع الى « يوسف فاخورى » يهنئونه فى حرارة ، ويطلبون منه المزيد ، الا « بسمة » فانها جلست صامتة لا تتحرك وهى منصرفة الى نفسها ، وقد أحست تهيبا مباغتا لم تعرف له سببا .

وعاد الفنان الى الغناء مرة أخرى ، وعادت « بسمة » تطير بخيالها الى ربوتها ذات الأشجار العتيقة ، تصغى الى الأغنية الساحرة !

ولما انتهت الحفلة ، وأرسلت الأنوار ، افتقد الجمع « بسمة » فلم يجدوها . . . وأمضت الفتاة ليلتها جالسة فى حجرتها على مقعد بجوار النافذة ، تنظر الى الفضاء المظلم الممتد أمامها بعينين حالمتين ، منصتة دائما الى أغنية الجدود ، يرددها ذلك الصوت الساحر !

وبين وقت ووقت يتراءى أمامها وجه أسمر باسم بعينين يقظتين تفيضان حرارة وحياة ، فتهتز « بسمة » فى نشوة وجذل ، وتسبل جفنيها فرارا من رؤيته . . ولكن : الى أين ؟. . والوجه دائما يلاحقها ؟!. .

ومضى الوقت ، و « بسمة » لم تغير جلستها . . . ولما طلع الفجر ،

وبدأت أحلام الليل تتقشع تحت أشعة الشمس ، قامت « بسمة » الى فراشها فى هدوء ، تفكر فيما مر بها فى ليلتها !

*

وفى اليوم التالى ، لاحظ سكان الفندق ، أول مرة ، أن « بسمة » لم تخرج فى الميعاد . . . ثم شاهدوها قبل الغداء فى البهو تسير فى خطوات وئيدة غير مستقرة ، على وجهها شحوب ، وفى عينيها قلق . فهرعوا اليها يسائلونها عن حالتها ، فأرادت أن تظهر أمامهم بمظهرها الذى ألفوه ، فابتسمت لهم ، وبدأت تتكلم وهى تنتزع الضحكات من قلبها انتزاعا . وقالت :

ما رأيكم أيها الرفاق فى نزهة الى . . .

ورأت « يوسف فاخورى » يدخل البهو ، ويمضى متجها نحو الجمع المحيط بها ، فاذا هى تختلج ، ويغشاها الاضطراب !

وشعر الجمع بدخول الفتى الفنان، فتهللوا له، وذهبوا به الى «بسمة» يعرفونه بها . فانحنى « يوسف » أمامها ، وصافحها ، فطأطأت الفتاة رأسها مغمغمة بكلمات غير مفهومة . . .

وما أسرع أن عادت الى حجرتها ، وجلست ترتجف . وبعد أن استراحت قليلا قامت غاضبة ، وأخذت تروح وتجىء وهى فى حيرة من أمرها . . . فيم هذا الاضطراب وهذا الجزع ؟ ولماذا تحس تارة رغبة فى البكاء ، وطورا رغبة فى الضحك ؟ وما شأن ذلك « الفاخورى » الذى يشعرها وهى على مقربة منه بجبن وتخاذل ؟ ما بها ؟ انها تشكو من شىء ، ولكن : ما هو ؟

ودخلت عمتها فى هذه الفترة ، فهرولت اليها « بسمة » وهى تقول :

عمتى . . . عمتى . . .

ثم ارتمت على صدرها تشهق وتنتحب ! . .

وتتابعت الأيام ، و « بسمة » تزداد شحوبا وانطواء على نفسها ، ولزمت غرفتها أكثر الوقت جالسة بجوار النافذة، تحلق فى أحلامها . .

وتواصلت حفلات « يوسف فاخورى » الساهرة ، فكانت تشهدها « بسمة » منتحية ركنا بعيدا مظلما ، تصغى فيه الى أناشيده ، وهى مغمضة العينين ، جياشة النفس . . .

ويحدث أحيانا عند انتهاء الحفلة أن يدنو « يوسف فاخورى » من « بسمة » ليحييها فيمن يخصهم بتحيته ، فتبتسم له فى تخوف ، وبغتة يتضرج وجهها ، وتسرع الى حجرتها ، تطرح نفسها على السرير وهى تنتفض . . .

وعجب سكان الفندق من أمر الفتاة : كيف استحالت من جنية مرحة تغدق على الجمع بشاشتها ونشاطها ، الى طفلة نفور تضيق بالمجتمع ، وتخشى الناس !. .

وقلقت العمة على ابنة أخيها ، فضاعفت عنايتها بها . أما « يوسف فاخورى » فلم تتعد صداقته مع « بسمة » تبادل السلام والكلمات المألوفة . . .

وأخيرا حان موعد ارتحال الفتى الفنان ، وأعلنوا فى الفندق أنه سيحيى ليلة الوداع ، فاكتظ البهو بسكان النزل ، وبمن قدم من أهل القرية

وحضرت « بسمة » الاحتفال فى حلة سماوية اللون ، لم تلبسها من قبل ، كانت أعدتها ليوم العيد . وصففت شعرها فى شكل جديد كله بساطة وتواضع ، ورشقت فى صدرها وردة بيضاء ذات عطر هادىء . . واختارت مكانها فى ركنها المعهود ، فانزوت فيه . ولم يكن يشوبها الا امتقاع وجهها الشديد ، على أن هذا الامتقاع كان من أسرار جمالها الوديع !

وجاء « يوسف » يلقى أناشيده البديعة على « الماندولين » ، فكان

توفيقه عظيما ، وضج الناس طويلا ضجيج الطرب والمراح

وعند انتهاء الحفلة ، حملوه على أكتافهم وطافوا به المكان ، فكان يحيي الناس تحيات لطيفة أنيقة . ومر بـ «بسمة» فوقفت له ، وابتسمت في رقة وسذاجة ، فعبرها بنظره ، ولم يكترث لها ، وبخل حتى بالتحية الصغيرة عليها . . . وظلت الابتسامة على وجه « بسمة » ولكن تلألأ الدمع في عينيها . . .

وذهبت الى حجرتها ، وهي تجد قلبها ينصهر في نار حامية . وتمددت على السرير بحلتها السماوية اللون ، وأطلقت لأفكارها العنان!

ودخلت عمتها الحجرة بعد قليل ، فلما ألفت ابنة أخيها راقدة في السرير ، لم تشأ أن تزعجها ، وتركت المصباح مطفأ

*

ولما استيقظت العمة في الصباح ، افتقدت « بسمة » فلم تجدها ، وانتظرتها طويلا فلم تعد ، ووجدت وسادة سريرها مبللة ، وتحت الوسادة وردة بيضاء ذاوية ، ولكنها مبللة أيضا . . .

وذعرت العمة لغياب الفتاة ، وبدأت تسأل عنها كل من صادفها . وفي سرعة البرق انتشر خبر اختفاء « بسمة » ، وتطوع الناس جماعات وفرادى يبحثون عنها ويسألون

وأخيرا عثروا على ثلاثة أشخاص شاهدوها في الصباح المبكر . قال أحدهم : انه رآها خارجة من الفندق بعد رحيل « يوسف فاخوري » بوقت قصير . . . وقال الثاني : انه لمحها تسير في الطريق الموصل لقرية « شنتورين » . . . وقال الثالث : انه شهدها في حلة سماوية اللون ، واقفة على قمة الصخرة المشرفة على الهاوية ، تتلاعب بشعرها الرياح، وذراعاها مبسوطتان ، ورأسها مرفوع !. .

تاج من ورق

تسألني يا سيدى المحقق : لماذا قتلت الأستاذ « زاهر » ؟ .. لم أقتل الأستاذ « زاهر » ، ولا يمكنني أن أفكر مطلقا فى هذا القتل . لا بد أنهم خدعوك حينما قالوا لك انى قتلته . على أنى لست أعرف لى عدوا يريد الايقاع بى ، فلماذا تقولوا على هذه الأقاويل ، واتهمونى ظلما بهذا القتل ، على الرغم من أن الجميع يعرفون ألفتي الوثيقة للأستاذ « زاهر » مدير الفرقة التى عملت فيها عشرين عاما وكيفا ؟ . .

لقد كنت أحبه وأحترمه ، وأعترف له بما كان يغمرنى به دائما من فضل ورعـاية . وكان يحبنى ، ويشيد بمواهبى ، ويقدر كفايتى . أيستطيع فرد واحد من أفراد الفرقة أن ينكر ذلك ؟ أحضرهم ياسيدى واستأنف سؤالهم . انهم سيقرون بخطئهم ، ويعترفون بكذبهم

لماذا قتلت الأستاذ « زاهر » ؟!

أيلقى على هـذا السؤال ، أنا الذى اذا سرت فى الطريق خطوت باحتراس وحذر ، خشية أن أطأ نملة ، أو أدوس صرصورا ؟ ليس فى الوجود أفظع عندى من مرأى الدماء ، حتى دماء هذه الحشرات . وأنا الذى أمقت مناظر القتل والحروب على منصة المسرح ، حتى لقبونى « بالملك المسالم الطيب القلب » ، وخصونى دائما بتمثيل شخصية هذا

الملك ، فبرعت فيه براعة لم ينكرها على جمهرة الفنانين . لم أكن وأنا أمثل هذه الشخصية بكاذب أو منتحل ، لقد كانت هى شخصيتى التى أعيش فى الحياة بها

صدقنى يا سيدى المحقق ، لست بقاتل الأستاذ « زاهر » . فاذا قبلت هذا أساسا لاستجوابى ، أمكننى أن أروى لك ما يهمك من قصة حياتي وعلاقتى بالاستاذ « زاهر » وفرقته

منذ عشرين عاما وأنا أمثل دور « الملك المسالم الطيب القلب » . منذ عشرين عاما كاملة وأنا أعيش فى قصور شاهقة ذوات أعمدة من بالذهب ، أجلس على العروش ، وأحمل التيجان المرصعة باللآلىء فوق رأسى ، وأتلفع بالرداء النفيس من المخمل والحرير ، يحمل لى ذيله الغلمان . منذ عشرين عاما وأنا أحضر المآدب الفخمة . آكل فى صحاف ثمينة ، وأشرب من كئوس ضخمة لامعة ، وأنثر الذهب على أتباعى ، فيقتتلون عليه . لا تقل يا سيدى : ان قصورى وما تحويه من تحف وزخارف لم تكن الا من ورق وصفيح ! كلا ، لقد كانت قصورا ملكية، لم يستمتع فيها بمثل ما استمتعت به ملك ولا سلطان . أليست العبرة باحساس الانسان لذة هذه المتع ، وتذوقها على أتم وجه ؟ لو أعطوك يا سيدى المحقق عشرة أطنان من الذهب الخالص ، وأسكنوك صحراء مجدبة لا يصلها بالعمران سبب ، ولا يرى فيها وجه حى ، وأسكنوا معك أطنانك ، تلك الثروة الضخمة التى تقتتل فى سبيل الحصول عليها أمم لا أفراد ـ فماذا تفيدك ؟ وأنى لك الاستمتاع بها ؟ ولكن الورق والصفيح فى قصرى المسرحى أكثر عندى نفعا ، وأوفر امتاعا من هذه الأطنان الغالية فى تلك الصحراء النائية . ذلك يشعرنى بعزة الملك وأبهة السلطان

كن صريحا واعترف بذلك معى . أقسم لك يا سيدى انى كنت أخرج من مآدبى الملكية ، وأنا أكثر شبعا وريا من أى انسان آخر

حشا بطنه بالطعام فى أفخر وليمة ! ان أنفاس الشواء الشهى فى تلك المآدب ما زالت تملأ أنفى ، وطعم الخمر المعتقة ـ التى كانت تحمل الى فى أكوابها الذهبية المرصعة ـ ما زال عالقا بفمى ! ما برحت حتى الساعة أستشعر ذلك الفرح الطامى الذى يغمر قلبى حينما أعفو عن مجرم ساقه السياف ليقتص منه أمامى . ان رؤية هذا المجرم المعذب وهو يرنو الى بعين الضراعة ، ثم رؤيته وهو يرتمى على قدمى يمرغ بهما وجهه ، شاكرا لى حسن صنيعى معه ، ما تزال يخفق لها قلبى ، وتبعث بالدموع الى عينى

سيدى المحقق : اسمح لى أن أكفكف عبراتى ، ولكن ، بالله عليك ، لا تسخر منى ...

لقد استمتعت حقا بكل ما فى حياة الملوك من نعمى وترف ، وهل أنسى هذا الجمع الزاخر من النبلاء والقواد وهم يمرون أمامى ، ويركعون خشوعا واجلالا ؟ أأنسى مجالس اللهو اللطيف ، التى كنت أقضيها مع الحسان من مغنيات وراقصات وضاربات بالدفوف ، حيث يخلع الانسان جانبا طيلسان الملك الوقور ، ليرتدى لبوس الملك الطروب . لن أنسى هؤلاء الحسان المطيفات بى ، وهن ينظرن الى نظرات تقرب واستعطاف ، فاذا فازت احداهن بابتسامة خاطفة من شفتى ، عدت ذلك مغنما ليس بعده مغنم فى الحياة !

عشت عشرين عاما يا سيدى وأنا ملك عظيم ، له رعيـة وجنود وأمراء ، له حاشية ضخمة من خدم وجوار وعبيد لا يحصرهم عدد . عشت هذه الأعوام الطويلة وأنا أستمتع بلذة التأمر والسلطان . كلمتى التى ينبس بها فمى قانون مكفولة له الطاعة ، ونظرتى التى ألقى بهـا على من هم حولى أمر واجب التقديس

قضيت أيامى وأنا أعيش فى هذا الجو ، ولم يكن لى بيت أقصده بعد انتهاء التمثيل . وكنت أكره الجلوس فى القهوة ، واضاعة وقتى مع

الزملاء فى حديث مضجر تافه ، فكان المسرح ملجئى الوحيد الذى لا أعرف سواه . أقضى فيه أوقات راحتى ، دائما هو بجوه وأشخاصه وقصوره . هذه التلال المكدسة من المناظر والملابس وأصناف المتاع ، كانت دائما تحيط بى ، فلا أسير الا بينها . كانت تحدثنى عن نفسى : أنا الملك ، وعن حياتى : أنا الآمر المطاع !

وظلت الحال كذلك ، حتى استدعانى مرة « الأستاذ زاهر » الى مكتبه ، فلما دخلت عليه استقبلنى ببشاشة وايناس ، وقدم لى لفافة فأشعلتها . وأخذ يحدثنى عن عملى المسرحى ويمتدحنى . وأخيرا قال:

أنت تعرف بلا شك يا أستاذ محفوظ محبتى اياك، واعزازى لشخصك، واعترافى بجميل خدماتك ، لذلك أرغب فى مكافأتك

فنظرت اليه مبتهجا ، وقلت :

سيدى ، حسبى رضاك عنى ، فهو أكبر مكافأة !

ـ ان حياة الممثل مملوءة بالمتاعب ، وعمله مرهق ، وقد قضيت فى فرقتى أكثر من عشرين عاما ، شاركتنا فى الحلو والمر ، ووقفت علينا عصارة عمرك فاستصفيناها ، وها قد حان الوقت لأن تفكر فى راحتك. سنعفيك من العمل مع ابقاء مرتبك

فقلت له وأنا مغمور بدهشة وحيرة :

تقصد احالتى الى المعاش ؟

ـ نعم ، ولكنه معاش كامل !

فخفضت رأسى ولم أجب . ورأيت نفسى أفكر دفعة واحدة فى أمور كثيرة ، فلا أعرف كيف أبدؤها، ولا كيف أنتهى منها. واختلطت فى رأسى المناظر ، وخيل الى أن الحجرة قد اكتظت بأصدقائى الأمراء والوزراء ، وحاشيتى من الجند والعبيد ، جاءوا يودعوننى ، اذ انتهى اليهم أنى تارك مكانى منهم . كنت أسمع صوت البوق يحيينى فى حزن

وحسرة وأنا أهبط الدرج الرخامى العظيم لقصرى المنيف ، وأتباعى يتهافتون على ذلاذل طيلسانى يندونها بعبرات الوداع . . .

وسمعت صوت « الأستاذ زاهر » يقول لى وهو يهزنى :

ما بك ؟ . . استيقظ يا أستاذ محفوظ !

فرفعت بصرى اليه ، وكانت عيناى شرقتين بالدموع ، فقال :

يا للعجب ! أتراك غير مسرور ؟

فأمسكت يده ، وتشبثت بها ، وقلت له :

سيدى . . . سيدى . . . لا أريد معاشا كاملا ، لا أريد شيئا مطلقا ، ولكن دعنى أعمل فى مسرحك بلا أجر ، ولا تطردنى

ـ ماذا تقول يا أستاذ ؟ اننى لا أطردك بل أكرمك . تدبر قليلا . انك بلا شك متعب الآن ، فاسترح ثم فكر فى الموضوع ، وتعال مرة أخرى لنتبادل الرأى

*

لم يجد رجائى شيئا عند «الأستاذ زاهر» ، ووجدت الجمع يلوموننى على مسلكى ، ويحمدون جميل صنيعه معى ، فليس هناك أكرم منه نفسا ، ولا أسخى يدا . فاقتنعت بأنى مخطىء واعتزلت عملى ، وقصدت الى حى آخر ناء ، استأجرت فيه حجرة ، واعتزمت أن أقضى حياتى بعيدا عن مسرحى، فلا تقع عينى على شىء يهيج شجونى ويثير عواطفى . وقد اجتهدت يا سيدى المحقق أن أقبل حكم الأقدار غير معاند ولا متسخط ، ورأيت أن أتفلسف كما كنت أفعل وأنا أمثل دورى على منصة المسرح عند ما تضطرنى الحادثات الى التسليم بالواقع . واجتهدت أيضا أن أتعرف الى أناس من أهل الحى ، علهم يستطيعون أن يخففوا من كربى ، وتجد نفسيتى فيهم تعزية وسلوى

قضيت ثلاثة أشهر كاملة فى مقرى الجديد ، وانى لأصارحك

يا سيدى بأنى قضيتها فى هدوء وسلام . كان أصدقائى الجدد يحبوننى وأحبهم ، أجتمع معهم فى القهوة حيث نسمر ، فيسألوننى عن نفسى ، وعن تاريخ حياتى ، فأسرد لهم الطريف منها . وأى حياة أسردها غير حياتى الملكية فى المسرح ؟ كنت أجلس معهم ، وما ان أبدأ فى احتساء بعض كئوس من الشراب ، حتى أحس أن « الملك » قد تقمصنى ، فأرى البهو العظيم ذا الأعمدة الضخمة ، وحوله الموائد الملكية تحمل أطيب المآكل وأشهاها ، وعليها الأكواب المرصعة مملوءة بالخمر المعتقة ، ثم هذا الجمع المحيط بى : بين راكع مبتهل ، وقائم متهيب ، وهذه الأصوات الصافية ، والموسيقى الشجية ، وصليل السيوف ، وقرع الطبول

هكذا كنت أقضى وقتى مع أصدقائى . فاذا ما عدت الى حجرتى ، وغلبنى النوم ، عشت ثانية فى قصورى الملكية ، آمر وأنهى مستمتعا بلذة الحكم والسلطان

أجل يا سيدى ! أعترف لك بأنى قضيت هذه الأشهر الثلاثة فى هدوء وسلام . وحدث فى أمسية يوم من الأيام وأنا جالس فى القهوة وحدى ، أن وقع فى يدى اعلان من اعلانات المسارح فعبثت به وقتا معتزما ألا أقرأه . وعجبت كيف عرفت هذه الاعلانات أخيرا طريقها الى هذا الحى النائى المنعزل ، ووصلت الى يدى ؟! أيكون ذلك محض اتفاق ؟ أم هناك تدبير محكم من الأقدار الخفية ؟ ونشرت الاعلان فوق المائدة وقلبى يدق وعيناى ترفان ، وقرأت أن فرقة الأستاذ « زاهر » ستمثل الليلة رواية « ملك الملوك » روايتى المحبوبة التى قادتنى الى الشهرة والمجد ، وأن الأستاذ « زاهر » نفسه هو الذى سيقوم بتمثيل « ملك الملوك » . . . رأيتنى أترك القهوة ، وأخذت أعدو فى الطريق ، ووجدت الناس ينظرون الى مدهوشين ويتساءلون عن أمرى . ولكننى كنت جادا فى عدوى ، لا أجيب أحدا بكلمة . وبعد جهد جهيد وصلت

الى المسرح فارتميت بجوار الحائط الخلفى فى مكان مظلم ، وقد ظننت نفسى هالكا . ولما استعدت قوتى ، قمت متسللا من البـاب الصغير ، ودخلت المسرح دون أن يرانى أحد

سيدى المحقق : أكبر ظنى أنك لم تتعرف دخيلة المسرح، ولم تقف على منصته المقدسة ، ولم تعش فى جوه العطر ، فلن تستطيع ادراك ما شعرت به فى تلك اللحظة ، وأنا أخطو بين أشتات المناظر المختلفة . ان ذكريات عشرين عاما بأسرها قد ثارت مرة واحدة فى قلبى، واندفعت يزاحم بعضها بعضا فى قوة وجرأة ، فأعادت الى فى لحظة كل ما فقدته من حماس وحيوية مدى الثلاثة الأشهر الماضية ، واعتقدت أنى قادر على الاتيان بالمعجزات

وهرعت من غير وعى الى مخزن الملابس ، وانتزعت من الخزانة طيلسان « ملك الملوك » وتاجـه وصولجانه . وطفقت أرتدى ملابسى وأتزين ، ووقفت أخيرا أتأمل نفسى فى المرآة

يا لله! هذا هو ملك الملوك قد بعث، وعاد الى دنياه بعد غيبة وانقطاع . لم أعد أحس وجود شخص اسمه « محفوظ » ، وكيف أحس وجوده، وهو نكرة من نكرات القهوات ، شخصية تافهة مرذولة تقبل أن تعيش كما تعيش الديدان الحقيرة ؟!

خرجت من الحجرة ولحيتى الملكية تنحدر على صدرى فى جلال ، فاذا حملة المشاعل ينتظروننى ، وخلفهم حملة الرايات ، ورأيت الجنود ترفع الرماح بالتحية الملكية ، وسمعت البوق يعلن قدومى . ودخلت البهو الفسيح فوجدته على حاله ، بأعمدته الضخمة المذهبة ، وحيطانه ذوات النقوش المتزاحمة ، يتوسطه العرش ، ومن فوقه القبة المكسوة بالقطيفة الحمراء . أولئك هم أمرائى ووزرائى يحفون حول العرش . ها قد عدت أخيرا الى مملكتى ، ها قد استعدت سلطانى !

مشيت الى العرش بخطاى الملكية المتزنة ، وأنا أحيى الناس حولى بابتسامة خفيفة . وما ان اقتربت من العرش ، حتى ظهر أمامى شخص غريب ، فحدقت فيه ، فاذا هو أيضا « ملك الملوك » . وقفت أتأمله وأنا مغيظ محنق ، ثم طلبت منه فى صبر أن يفسح لى الطريق ، وأن يتنحى على الفور ، فما هو الا مغتصب للملك . فتحدانى باجابة قاسية شق على احتمالها ، فجاهدت عبثا أن أملك عواطفى ، ولكن كيف يستطيع الحليم أن يضبط عواطفه اذا طمت الكأس ؟!

ورأيت نفسى أرفع صولجانى فى وجهه ارهابا وتحذيرا

وغشيت الظلمة عينى

ولم أعد أعى شيئا . . .

وجاءوا بى اليك

هذه هى قصتى يا سيدى . أفلا تعتقد بعد كل هذا أنى برىء من دم الأستاذ « زاهر » ؟!

فى خميلة الحب

زعموا أن زهرة شبت على حافة غدير لؤلؤى فى خميلة حافلة ، قد حبتها الطبيعة ربيعا لا يتبدل

انها زهرة فى عنفوان صباها ، قضت أيام طفولتها فى سذاجة ومرح، لا تعرف من الحياة غير جانبها الوضاء ، تمضى وقتها تغنى وتضحك ، وتتنادر فى تماجن وهزل مع أصدقائها سكان الخميلة ، من طيور وهوام

والآن انقضى عهد الطفولة ، وبانقضائه تغير كل شىء، غدت الزهرة الثرثارة الماجنة صموتا ترغب فى الاختلاء بنفسها ، والاستغراق فى تفكير طويل ، فاذا ما صحت من أحلامها ، تلفتت حولها لتبحث عن محبين أضناهما الغرام ، يتبادلان القبلات بلوعة وحنين ، فتراقبهما فى شوق تريد أن تشاركهما شعورهما الفياض . واذا ما جن الليل ونامت الطبيعة كلها ، يحلو للزهرة أن تسهر لتصغى الى ذلك الصمت الرائع، وقلبها الصغير يزخر بشتى العواطف

انها تحس انقلابا عجيبا فى نفسها ، فما سر هذا الانقلاب ؟

وجاء النسيم فحياها تحية الصباح ، فاختلج قلبها لمرآه ، وتورد خداها ، فأسبلت جفنيها وردت تحيته فى ارتباك . وكان النسيم ناصع الجبين تلمع عيناه يقظة وحياة ، فدار حولها بجسمه اللين الساحر وهو

يديم النظر اليها متفحصا ، فأسرعت خلجات قلبها ، وعظم ارتباكها ، فوقف النسيم مزهوا يبتسم ، وقال :

ارفعى رأسك الى أيتها الصغيرة ، وخبرينى ماذا يزعجك ؟!

فلم ترفع الزهرة رأسها بل زادت فى تنكيسه ، وأطالت صمتها ، ورأى النسيم كيف أن أوراقها تضطرب بشدة ، مع أنه قابع لايتحرك، والدنيا كلها ساكنة بسكونه ، فأشفق عليها ، وأخذ يلاطفها ويقول :

لقد حزرت سرك يا صغيرتى ، ويجب أن أصارحك بنصيحة ، فلا تتألمى منها

وبدأت الزهرة ترفع رأسها متباطئة تسترق النظر اليه ، وهى مرهفة السمع . وتابع النسيم حديثه فقال :

لقد أحبنى قبلك كثيرات من سكان هذه الخمائل والمروج ، وتعذبن من أجلى ، ولكنهن لم ينلن منى مأربا . . . لقد خلقت لأن أحب ، أما أن أحب فذلك أمر لم يقع ولن يقع أبد الدهر . وكيف يراد أن أكون محبا وأنا الطليق الذى حبانى الله حرية لم يمنحها كائنا آخر غيرى. مسكنى هذا العالم الفسيح ، أحيط به من كل ناحية ، فكأنه فى قبضتى أمرح فيه كما أشاء ، أطوى فيافيه ، وأنبسط على بحاره ، وأعلو حتى ألمس سماواته البعيدة المحجبة بالأسرار . أجل يا صغيرتى ، ان حريتى مطلقة لن يستطيع أحد أن يحد منها ، أفليس كل مكان ميسرا لى أدخله كما أشاء ، وفى أى وقت أشاء ؟ هل استطاع كائن مهما عظم أو صغر أن يخفى نفسه عنى ؟ حتى العذارى الطاهرات ! انى لأدخل عليهن بلا استئذان فى خدورهن وهن نائمات ، فلا يستطعن دفعى أو الهرب منى ! فكيف أحب وكل شىء ميسور المنال عندى ؟ لا أبدأ أفكر فى رغبة حتى أرانى قد حصلت عليها ! . .

وأخذت الزهرة ترفع رأسها رويدا وقد بدأ الاضطراب يفارقها . انها لتحس ضآلتها وتفاهة أمرها أمام ذلك المزهو الجبار . ورنت اليه

والحسرة تهصر قلبها ، تسمع حديثه كأنه حكم القضاء الفاصل ...
وتابع النسيم حديثه ، فقال :
يا زهرتي الصغيرة !.. أنت ما زلت طفلة اذا وازنت نفسك بي . أنت بنت أشهر قليلة ، أما أنا فابن العصور الغابرة ، خلقت منذ الأزل ، وما زلت أحيا ، أحيا كما كنت قويا فتيا قادرا . لا أستطيع أن أمنحك الحب الذي تريدين ، ولكنني أعوضك عنه عطف الجد على حفيده ، فحسبك مني هذا ولا تطلبي المحال ... ان الفارق بيننا عظيم ، فكيف تستطيعين أن تجمعي بين ذلك الذي يقدر أن يدور حول العالم فى ساعات معدودات ، وبين تلك التي لا تستطيع أن تمد يدها الى أبعد من خطوة !
يا صغيرتي : ما زلت أكرر على مسمعك - وان كرهت ذلك - أنك ما زلت طفلة ، وستعيشين فى طفولتك هذه طول عمرك ، والا فحدثيني ماذا رأيت من هذا العالم ، وماذا أصبت من خبرة وعلم ؟! لعلك تظنين أن الدنيا كلها محصورة فى تلك الدائرة التي تحيط بك ، وأن العالم لا يحوي الا هذا النفر البله من العشاق ، يأتون الى خميلتك يتطارحون الزفرات والقبلات ، وهذه الضفادع والهوام تشوب سكون الليل بنقيقها البغيض ! الدنيا أروع من ذلك وأعظم ، اذا أردت أن أسرد لك ما فيها من عجائب ، ما وسعني قرن كامل !
كان النسيم يتكلم والزهرة تصغي بلا حراك ، تصغي فى مذلة وتصاغر ، وقد بدأ نثار الطل يتساقط من مآقيها فينساب على أوراقها فيبلل عودها . وأتم النسيم حديثه فقال :
وأنا ، هل عرفت من أنا ؟! ستقولين بلا ريب أنت نسيم السحر الذي يسبق سنا الفجر ، فيأتي ويوقظني بلمساته اللطيفة . أنت نسيم الأصيل الهادىء اللين يأتي فيسامرني بهمساته الخفيفة . أنت نسيم الليل الصامت يأتي فيوسدني صدره الحنون فأنام غارقة فى أحلام

جميلة ... أجل أنا ما تظنين ، ولكن هذا جانب واحد من جوانبى المتعددة . لقد رأيتنى لينا دائم الاشراق ، فهل رأيتنى وأنا غاضب ثائر؟ أقسم بمبدع هذا الكون انك لو رأيتنى وقد انقلبت الى ريح صرصر عاتية ، اذن لكرهتنى لساعتك ! أنا ذلك الطاغية الجبار ، أنطلق فى هذا الكون هائجا لا أرحم ضعيفا ولا قويا ، انى لأطأ البراعم فى أكمامها ، والأزهار الفتية فى نضارة عمرها ، كما أحطم أمامى بلا وعى باسقات الأشجار ، وأدك الصروح وأثير البحار ، فلا يعنينى كم دمرت من شاهقات السفن ، وكم فتكت بالغالى من الأرواح ! أنا الذى أفك عناصر الطبيعة من عقالها ، فتشاركنى تخريب هذا الكون ، فالبروق تشهر سيوفها اللوامع بجانبى ، والرعود تطلق من حناجرها زئيرها المخيف مفسحة الطريق أمامى ، والسماء تغرق الكون بفيضانها الجارف تكريما لى واعظاما

وسكت النسيم ، ونظر الى الزهرة محدقا ، فرآها ترتعد ، وقد أثبتت فيه عينيها الحلوتين الخائفتين ، ثم سمعها تهمس :

أأنت حقا كذلك ؟

فأجابها النسيم متحسرا مشفقا :

أجل أنا كذلك ... ولكن لن ترينى على هذه الصورة أبدا ، ان خميلتك فى ربيع دائم ! سأظل لك نسيم السحر الذى يسبق سنا الفجر ، فيوقظك بوسوسته اللطيفة ، سأكون دائما لك نسيم الأصيل الهادىء اللين يسامرك بخطرته الخفيفة . سأغدو لك دائما نسيم الليل الصامت ، يوسدك صدره الحنون ، فتنامين غارقة فى أحلامك الجميلة ... سأكون لك دائما أبا عطوفا !

وطبع النسيم على جبينها قبلة هادئة ، ثم تمطى والتوى على نفسه متمددا منبسطا ، فاذا به قد انتقل فى طرفة عين الى بلد آخر يحمل على شفتيه الشفافتين عطر الزهرة البائسة ، ينشره فى مغانى الحب ومسارحه

ومكثت الزهرة تفكر فيما قاله النسيم ، فوجدته حقيقة ناصعة ! انها حقا لجاهلة غبية ! كيف سمحت لنفسها بأن تحب هذا العظيم الجبار ، وهى العليلة السقيمة ، القعيدة فى مكانها ، المشدودة بجذورها فى الأرض لا تستطيع حراكا ؟!

يا لله !.. ما أتعسها !..

من لها بمحب مخبول من بنى آدم ، ينتزعها ويقدمها الى محبوبته تذكارا منه يؤنسها فى غيبته ؟! لقد أخفقت فى حبها ، فهلا تنعم فى آخر لحظاتها بقبلات العشاق وتروى ظمأها بدموعهم، ثم تذوى على الصدور قريبة من خفقات القلوب ؟!

ولكن أين هو المحب الذى يلتفت اليها ؟

ان المحبين يمرون بها فلا يعيرونها أقل لفتة ، ماذا فيها من المغريات حتى تجذبهم اليها ؟ أهذه الساق المصوحة المنفرة ؟ أم هذا اللون الناصل ، لا رونق فيه ولا بهجة ؟!

أين فأس البستانى يقتلعها من الأرض ، فتقضى نحبها مدوسة تحت الأقدام ؟ ولكن البستانى لا يأتى اليها ، انه فى شغل شاغل بأزهاره النضرة البهيجة ، يقضى وقته معهن يعنى بزينتهن ، فيطرى شعورهن بقطر الندى ، ثم يرجلها ويصففها ، ويبرد سيقانها بماء الغدير ، انه كالماشطة الماهرة تعد العروس لخاطبها ، فهل يأبه بعد ذلك لتلك الزهرة الحقيرة ؟! سيدعها فى مكانها المهجور ، وسط الأعشاب والأشواك ، يدعها تذوى ويجف عودها على توالى الأيام ، تذوق مرارة الحرمان مقرونة بقسوة الشيخوخة ، فتموت مرة فى كل لحظة ...

ومضى الزمن فى سيره والزهرة تزداد شحوبا وجفافا ، كانت تنتظر بصبر نافد واستسلام يائس قضاء الله فيها

وبينما كانت يوما محنية الرأس خالية الى أحلامها الكدرة ، اذ أحست شيئا مرتجفا قد هبط عليها وأخذ يخفى نفسه بين أوراقها ،

فنالها الفزع ، وسألته من يكون ؟ فأخبرها وأنفاسه متلاحقة وجسمه يرتعد - بأنه فرفور هارب من يد القانص ، يطلب الرحمة والحنان بين لفائف قلبها الحنون ، فعجبت لأمره . لقد هجرتها أسراب الفرافير وجماعات النحل منذ أن نكبت بهذا الغرام المبيد . لم يعد أحد يزورها فيقف على رأسها فوق أوراقها يناجيها ، ويتناول من فمها رحيق الحياة.

وهمت أن تقذف بهذا المتطفل خارج أوراقها ، فاذا بشخص بدين قد دخل الخميلة ، وبيده شبكة لصيد الفرافير ، يلتفت يمنة ويسرة بعيون زائغة ، ووجه محتقن يتحلب منه العرق ، فكأنه فيل مستوحش يطارد فريسته . فما ان رآه الفرفور حتى ازداد انكماشا وارتعادا ، فأطبقت الزهرة عليه أوراقها ، فاختفى عن العيون ، وسار الرجل فى الخميلة هنا وهنالك ، وبيده دائما شبكته يعدها لاقتناص الطريدة ، وكان يضرب الأرض بعصاه فيثير غبارهـا ، ثم يقصد تارة الى الأزهـار والرياحين ، وطورا الى كومات الأعشاب ، ومرة أخرى الى الأشجار الملتفة المتجهمة ، يبحث بينها وينقب ، وهو يهش عليها عله يخرج منها فرفوره . . . ولكنه لم ينل بغيته ، فزفر متململا ، وخرج من الخميلة، وهو يجر شبكته ، فلما أيقنت الزهرة أنه لن يعود ، قالت للفرفور وقد باعدت عنه أوراقها :

لقد ذهب !

- أموقنة أنت بذلك ؟

- لقد خرج يائسا ولن يعود !

وأخرج الفرفور رأسه من بين الأوراق ودار بعينيه الذهبيتين حوله، ثم قال :

أأفلت حقا من يد ذلك القانص ؟!

- كما ترى !

- وافرحتاه ! ما زالت أمامى أيام بهيجة أقضيها فى هذه الدنيا . . .

ـ أتحب الحياة الى هذا الحد يا فرفور ؟!

ـ نعم يا زهرة ، أحبها وأعبدها !

ـ علك موفق فى الحب !

ـ ان قلبى ما زال بكرا !

ـ اذن ما الذى يجعلك هكذا متشبثا بالحياة ؟!

ـ كل شىء يا زهرة ، شبابى الغض ، وهذه الدنيا الضاحكة حولى

ـ ما أسعدك بشبابك ودنياك ! ولكن خبرنى ، ما شأنك مع هذا الآدمى ؟

ـ يبتغى صيدى ليضمنى الى مجموعة فرافيره الزاهية الألوان التى يعتز بها

ـ ومن أين لك علم بهذه المجموعة ؟

ـ رأيتها بعينى فى صندوقه الزجاجى ذى الصفوف المنسقة ، تعرفت الى خلانى وأقاربى وهم مثبتون فى لوح هذا الصندوق بنصال مغروزة فى رءوسهم . انها لتحفة ثمينة ، قرة العين والنفس لبنى الانسان ، انها ضريحنا العظيم يعرضون فيه أشلاءنا فلا يراعون حرمة ولا يبالون كرامة . وددت لو مت ميتتى الطبيعية بين أحضان المروج الخضر ، أو على صدوركن أيتها الزهرات الفاتنات ، ثم لا أعنى بعد ذلك ، أتذرونى الرياح فى كل مكان ، أم تبتلعنى الأرض فتخفينى فى جوفها الرطيب؟

وصمت الفرفور والزهرة تتأمله مليا ، وكانت نظراتها دائما مغشاة بذلك النقاب الحزين ، فقال لها الفرفور :

ولكن مالى أراك كئيبة يا صديقتى ، وأنت ما زلت فى نضرة عمرك وريعان بهائك ؟

ـ ان عمرى ولى ، وقد طرحته خلفى مع ما تبقى من بهائى وورنقى!

وتنهدت طويلا ، فارتعشت أوراقها الذابلة ، وتماسكت خشية السقوط ، فقال لها الفرفور :

هلا شكوت لى أحزانك !

ـ انى أختزن أحزانى فى حنايا صدرى ، لقد أصبحت جزءا من نفسى !..

فاحترم الفرفور رغبتها فى صونها لسرها ، ولم يشأ أن يتابع حديثه فى هذا الشأن ، وان كان قد بدأ يدرك بغريزته الصادقة خفايا ما ينتابها من أحزان

وتلفت الفرفور حوله وهو يرفرف بجناحيه الزاهيين بالألوان الفاتنة ، والزهرة دائما تتأمله ، ثم قال :

المكان هنا عابس قابض للنفس ، فالخميلة متشابكة تحجب أشعة الشمس ، وهذا الصمت الموحش الذى يخيم على كل شىء ، ثم هذا الهواء الراكد المملول !..

ووقع بصر الفرفور على الأعشاب الجافة التى تحيط بالزهرة من كل مكان ، فهجس :

وهذا الدغل الكريه الذى تعيشين فيه !.. يا للهول ! كل شىء حولك مجلبة للهم والضيق ، آه لو كنت فى مملكتى !

ـ وكيف هى مملكتك ؟

ـ مرج أخضر فسيح بلا منتهى ، يغطى أديم الأرض ، ومرج أزرق صاف منبسط فوقنا . كل شىء حولنا رحب طلق ، الشمس تسبغ علينا أشعتها الوهاجة بلا حساب ، والهواء يجرى مرحا لعوبا فى ساحاتنا ، فاذا ما دخل فى هذه الخميلة أحاطت به الأدواح الهرمة من كل جانب ، وأحس الخمول يشيع فى جسمه اللولبى فتمدد مسترخيا يلتمس النعاس !..

ـ اذن أنت تاركنا على الأثر !

ـ كلا يا زهرة ، لن أتركك على الرغم من ذلك

ثم رنا اليها مبتسما ، وهو يقول :

وهل أجد فى مرجى الفسيح صدرا حنونا كصدرك أرتاح اليـه ؟ وأنى لى بوريقاتك الناعمة تلتف حولى فتضمنى ؟.. والآن ألا تسمحين لى بقبلة من ثغرك البسام ؟

ولم ينتظر جوابها ، بل تعلق بثغرها ، ونهل من رضابه نهلة مسكرة، ثم تركها وظل يدور حولها وهو يقول :

كم أنت حلوة يا زهرة ، ان جمالك ليضيع فى ذلك المكان القفر ، ولكن صبرا !..

ثم انطلق فى الفضاء الفسيح ، يسبح فى وهج الشمس حتى اختفى، والزهرة تتبعه نظرها حيث طار . انها بدأت تشعر باضطراب ، وقد استيقظت بعض هواجسها . . . أيعود حقا ؟ ولماذا تركها وذهب ؟ لقد أحست وهى تحيطه بوريقاتها ـ ضامة اياه الى صدرها لتخفيه عن أعين الانسان ـ بشعور لطيف يسرى فى عودها . ثم هذه القبلة التى أمتعها بها الساعة . . . يا له من فرفور فاتن ؟!

ومضت الزهرة تناجى نفسها ، وهى ترقب عـودة صديقها بصبر نافد . . . وما عتمت أن رأته آتيا يرف فى الفضاء كنجم يتلألأ ، وخلفه سرب من الهوام القارضة تتبعه طائرة كما يتبع الجيش قائده . وجاء الفرفور ضاحكا يطير حول صديقته ، وحط السرب على الحشائش التى تكتنف الزهرة ، فأبادها فى لمحة عين ، ثم مضى يمهد الأرض حولها ويسويها ، وقال الفرفور وهو لا يزال يدور حول الزهرة :

كيف رأيت ؟! انك الآن كعروس فى خدرها . ها هو ذا الغدير قد اقتربت مياهه منك ، وكان يفصلك عنه هذا العشب القذر ، وبانت لك معالم السماء ، وقد كنت لا تلمحين الا أطراف قبتها ، وامتدت نحوك أشعة الشمس تداعب عودك وتدفئه . . . يا الله ! شدما أنت حلوة يا زهرة ؟! ألا تسمحين لى بقبلة من ثغرك البسام ؟!

ولم ينتظر هذه المرة أيضا جوابها ، بل تعلق بثغرها ، ومضى ينهل

من رضابه نهلا ، فاختلجت الزهرة بنشوة غريبة ، وأطبقت وريقاتها اللينة العطرة على الفرفور ، فأخفته فى أحضانها !..

*

... وتوالت الأيام ، والزهرة والفرفور ينعمان بحبهما الفياض ، يقضيان النهار وهما يتناجيان بحديث الغرام ، أو يتناوبان رواية النوادر والقصص عن الانسان، ذلك الآدمى المجهول الذى بز الكائنات الأخرى بغباوته وصلفه. حتى اذا ما أقبل الليل فتحت الزهرة لصديقها صدرها، فيدخل مطمئنا الى ذلك الخدر الدافىء العطر ، ويتوسد موضع قلبها ، فتطبق عليه أوراقها وهى تحتضنه وتقبله فى شغف وحنان ، وينامان كأنهما كائن واحد ، ويستمتعان معا بأحلام متشابهة ... وعند السحر تهبط أول قطرة من قطرات الندى على جبين الزهرة الهادىء، وتتدحرج على خدها تدغدغها ، وهى تهجس لها :

قومى أيتها الزهرة الكسول ، واستقبلى طلائع الفجر ! ألا تشمين عبير أنفاسه وقد بدأت تشيع فى الكون ؟..

فتستيقظ الزهرة مبتسمة ، وتتمطى بعودها اللدن ، ثم تأخذ تنفض أوراقها وتراقب فى تضاحك ومرح فرفورها الثمل بلذة النوم ، وهو يهتز على صدرها كنهد متوثب على صدر عذراء، ويصحو الفرفور فيدور مترنحا حول زهرته ، وأحلام الليل العذبة تتطاير منه كأنها نفحات عبقة ، ثم يهرع الى المرج الأخضر الفسيح ، فيجوب مسارحه ، ينهب نواره مزهوا بجماله ، مملوءا غبطة ورفاهة . ثم يعود الى الجميلة ، فلا يكاد يقترب من الغدير حتى يرى الزهرة وقد سدلت غدائرها ، ومالت الى الماء تغتسل ، فيقف يراقبها والجوى يزداد فى قلبه اشتعالا ، حتى اذا وقعت عيناها عليه توهجت وجنتاها ، ثم أسرعت فالتفت بشعرها ، وخرجت من الغدير يقطر منها الماء ...

كذلك عاشت الزهرة والفرفور فى بحبوحة الحب لا يعنيهما من أمر

العالم المحيط بهما شيء . انهما فى سكرة لا صحوة منها ...

وتوردت الزهرة ، وامتلأت حياة ونورا ، فأضحت فتنة الخميلة كلها . وجاءها البستانى يتملقها بعطفه وعنايته ، فنبش الأرض حولها يمنع عنها تزاحم الحشائش المتطفلة ، ورعاها بالماء يسقيها ويرشها ، وهو ينظر اليها معجبا فخورا ، زاعما أنها ربيبته المختارة ، وثمرة كده وخبرته ... وأصبحت الزهرة قبلة الأنظار من زوار الخميلة يقفون أمامها طويلا مدهوشين من روعة حسنها

أما الفرفور فقد زها لونه وتلألأ ، وازداد نشاطا وخفة ، فأطلق لنفسه حرية المجون والعبث ، فكان يتربص للقادمين ، فاذا ما دخل الخميلة واحد منهم ، هب الفرفور منطلقا خلفه ، وهوى على قفاه يعضه ويخزه ، ثم عاد مسرعا الى زهرته ، واندفع كلاهما يضحك مما نال القادم من أذى وضيق !

وتلاحقت الأيام أيضا ...

وكان أن هبط الخميلة عاشقان مدلهان أخذا يتنزهان على حافة الغدير ، جيئة وذهوبا ، يرويان روحيهما الظامئين بما يحيط بهما من فتنة نادرة ، يتأملان الزهر فى اعجاب ، ويستنشقان النسيم فى شغف . وبين الفينة والفينة ينحنى العاشق فيقطف زهرة يشمها ويودعها قبلة حارة ، ثم يهديها الى حبيبته ، فتأخذها منه ، وتلثمها ثم تضمها الى قلبها ...

وكانت « زهرتنا » فى تلك الفترة غارقة فى أحلامها الهنيئة ، تنتظر عودة فرفورها من جولة معربدة فى المروج ... فبينما كانت على هذه الحال ، ناعسة الجفن ، متدللة فى وقفتها ، اذ شعرت بهمس آدمى حولها ، ففتحت عينها فاذا بها أمام العاشقين يلتهمانها بنظراتهما ، فانتفضت جزعة ، وتلفتت حولها تبحث عن فرفورها . ومال العاشق على أذن حبيبته يطرى لها جمال الزهرة ، ثم مد يده فى غير مبالاة الى عودها ، وأمسك به وهو يقول :

ساق ذات طراوة نادرة تحمل رأسا بديعا رائعا !

وأطبقت الزهرة أوراقها حولها فى استسلام ، وهمست مرتجفة :
ارحم شبابى ودعنى لأعيش !

ولكن يد العاشق القاسية شدت عليها وانتزعت عودها ، ثم ناولتها الحبيبة ، فضمتها الى طاقة الزهر قريبا من قلبها !

وجعل العاشقان يتنزهان فى الخميلة ، والزهرة تحترق رويدا على صدر الحبيبة ، وتلفظ أنفاسها العطرة كأنها الأحلام الضائعة

ولما حان وقت الفراق طوق العاشق خصر محبوبته واشتبك معها فى قبلة وعناق ، وكان أن اختل نظام الطاقة ونالها بعض التفكك ، فسقطت « الزهرة » ، ولم يشعر بها أحد ، وداستها أقدام المحبين فأجهزت عليها

وعاد الفرفور من نزهته ناشطا يلتمع ، ولكن ما كاد يدخل الخميلة حتى وقع بصره على الزهرة ، وهى أشلاء مضرجة بدمائها فى مواطىء الأقدام ، فظل حينا يحوم حولها وهو يرجف : من تكون ؟!

وانطلق فى خطفة البرق الى مكان زهرته بجوار الغـدير ، فألفاه خاليا ، فأدرك كل شىء . . . فتفطر قلبه ، وأظلمت الدنيا حوله ،ورجع اليها وجناحاه واهنان لا يقدران على حمله، وهوى عليها يتشممها ويقبلها وهو ينتحب مناديا اياها بأعز الأسماء وأغلاها . . .

وبينما كان الفرفور فريسة لأحزانه يندب زهرته ، ويندب حياته الهانئة معها ، اذ أبصر جسما ضخما قائما أمامه ، فرفع بصره اليه ، فتبين فيه ذلك الجرم الآدمى ، مطارده القديم ، فلم يتحرك من موضعه . ان القلب الدافىء الأمين الذى حواه فى المرة الأولى أصبح الآن ممزقا باردا ، لن يذهب ليفتش عن غيره ، لن يخون حبه مع زهرة غيرها . . .
وارتمت الشبكة عليه فى ذلك الوقت فحبسته بين مخالبهـا ، وأمسكته أصابع الآدمى ، وما عتمت أن دقت رأسه بالنصل ، وأثبتته بجوار

صحابه فى الصندوق الزجاجى

وتطايرت أنفاس الفرفور ، فاختلطت بأنفاس صديقته الراحلة ، وحملهما النسيم خارج الحميلة ، ونشرهما فى الفضاء الفسيح . . .

*

وسكت صديقى الذى كان يروى لى هذه القصة ، وأشعل لفافة تبغ وراح ينفث دخانها وهو يتأمله ، ثم استأنف حديثه :

ان القصة التى رويتها لك الساعة ليست من نسج خيالى ، فقد قصها على هذا « البلبل » ، وكان من سكان الحميلة !

وأشار الى قفص مفضض معلق فى ركن الحجرة ، فنظرت اليه فوجدت فيه طيرا ذا لون أصفر تشوبه دكنة ، يحدق فينا بهدوء وهو واقف على شبه جذع صغير

وأتم صديقى حديثه وقد تبينت فيه الصدق الأكيد :

لقد رويت لك القصة كما سمعتها بنصها لم أنقص منها كلمة ، ولم أزد عليها حرفا

وشملنا الصمت العميق ، وكان النهار يضمحل على مهل ، فتشيع على أثره الظلمة ، واستسلمت أنا وصديقى الى خمول رازح ، وأسبلنا جفوننا . . .

وبعد قليل أخذ البلبل يشدو ، بدأ صوته ضعيفا غير مسموع ، ثم جعل يعلو فيردد المكان صداه . . . وأصغيت فى ولوع الى شدوه ، وخيل لى أن غناءه ليس أنغاما موسيقية صرفة ، بل يحوى معانى وألفاظا . . .

وكانت نافذة الحجرة مغلقة ، فاذا بها تنفتح فى هوادة ، وينحدر منها النسيم لينا وديعا ، وطفق يتمدد فى الغرفة بجسمه الحريرى الشفاف ، يشاركنا الاصغاء . . .

واندفع البلبل يروى قصة جديدة من قصص الحميلة ، وكلنا آذان له واعية !

مأساة نفس

في العشرين من عمرى كنت أقيم مع والـدتى فى منزل الأسرة الكبير فى « شبرا » . وقد انقطعت عن المدرسة مسترسلا فى حياة كلها لهو واسراف، ولم تكن أمى تمنعنى شيئا لشدة محبتها لى، اذ أنا وحيدها. ولكنها فى الوقت نفسه لم تهمل أن تظهر لى أسفها المر لسوء سلوكى وخيبة أملها فى نجاحى

وكانت تعيش معنا فى المنزل فتاة يتيمة تدعى « صفاء » ، احتضنتها والدتى منذ الصغر للصداقة الوطيدة التى كانت تربط أسرتنا بأسرتها. وأغدقت عليها من حنانها ورعايتها ما أنساها يتمها ، فشبت وترعرعت بيننا كأنها منا . وهى فتاة ضئيلة الجسم ، سكوت ، لهـا ملامح هادئة مقبولة ، يلفتنى اليها صفاء عينيها وما تحويان من جاذبية ، يصعب أن تستكنه أغوار نفسها . وقد وهبت نفسها لخدمة المنزل تديره فى حذق ربات الدور ، فأراحت والدتى من تعب كبير . وكانت مشغوفة بعملها، لا تستنكف أن تمد يدها مع الخدم تساعدهم فى أحقر الأعمال

وظلت علاقتى بها عادية محضة ، فقد نشأت أراها بجانبى فردا من أفراد أسرتى . ولم أشعر نحوها بأكثر مما يشعر به كل انسان نحو شخص عاشره وقتا ما . ولا أنكر أنها كانت تثير أعصابى بهذا الاهتمام

الذى يفوق الحد بأمور المنزل ، وذلك الاحتشام الشـديد الذى يسود كل شىء فيها : ملابسها ، حديثها ، حركاتها . . . فلا أكتم عنها ضيقى، فتقابل هذا الضيق بابتسامة صامتة تحمل الغموض فى تضاعيفها

وجرت الأيام على هذا النحو ، وعاشت « صفاء » تسكن حجرة صغيرة أشبه بالسجن ليس لها الا نافذة ضيقة . وهى قريبة من جناح الخدم ، اختارتها بنفسها وفضلتها على سواها من حجر المنزل ، تقضى فيها وقت فراغها منفردة . وقليلا ما كنت أراهـا فى الحديقة تطالع فى بعض الكتب ، فاذا رأتنى قامت وتركت المكان ، أو بادلتنى بعض كلمات على عجل . فكنت أعجب لذلك . وأثار فى أسلوب حياتهـا حب استطلاعى ، فأحسست رغبة فى استجلاء ما يكتنفها من خفاء

وحدث مرة أننى كنت مارا أمام حجرتها ـ وكانت قد خرجت مع والدتى لقضاء بعض الشؤون ـ فشعرت بقدمى تتسمران أمام الباب. وفى لحظة كنت داخل الحجرة أقلب ما يقع تحت يدى من أشيائها . ثم وقفت أمام صوان الملابس ، وأردت فتحه فوجدته مقفلا ، فأخرجت على الفور مبراتى وعالجت القفـل حتى انفتح . فألقيت نظرة عـلى محتويات الصوان ، فلم يستوقفنى فيها شىء غير عادى : ملابس ومفارش وما شابه ذلك . ومددت يدى أعبث ، فصدمنى شىء صلب بين ثنايا الثياب ، فأخرجته فاذا به دفتر بجلدة أنيقة عجبت من وجوده فى هذا المكان . وسارعت الى فتحه فقرأت فى صفحته الأولى كلمة : «اعترافات» فابتسمت ابتسامة رحيبـة ، وخرجت من الحجرة ومعى الدفتر غـير مكترث بشىء . وقصدت على الفور الى حجرتى ، وبدأت أقرأ هـذه الاعترافات فى شـوق واهتمام . . . وتوقفت عن القراءة وأنا دهش متحير ، لا أكاد أصدق عينى . ثم استرسلت فى ضحك عال ، وعدت الى القراءة وقد تضاعف شغفى . وكلما تابعت قراءتى ازددت ضحكا وضجيجا . يا له من اكتشاف عظيم ! كانت اعترافات محب تدله فى حبه،

يكتب بعصارة قلبه . « صفاء » تحب حبا بالغا ... وتحب من ؟ ..
تحبنى أنا ... أجل أنا نفسى ! ..

ومر يومان على هذا الحادث ، وجعلت أشدد رقابتى على « صفاء » ، فاتضح لى على الرغم من بالغ تحفظها شدة الأزمة النفسية التى تجتازها: وجه شاحب تنطق كل قسمة من قسماته بقلق مستعر وهم رازح . يدان ترتجفان كعجوز مقرورة مثقلة بالسنين . سويعات وجوم تستيقظ منها مضطربة متزايلة القوى ... ولكننى استطعت ، قبل كل شىء ، أن أقرأ فى عينيها أنهـا تتهمنى بسرقة الدفتر ، فأخذت أتعمد اطالة الحديث معها رغبة منى فى احراجها ، فكانت تخفض بصرها ولا تجيب الا اجابات مبتورة . وعنـد ما أطلق من فمى ضحكة عابثة ، أجـدها ترتجف ويرتسم على محياها طابع الألم والانكسار

وتبعتها مرة الى حجرتها دون أن تشعر ، ووقفت بالباب أتسمع .. ظلت خطواتها تروح وتجىء مضطربة غير مستقرة ، ثم سمعتها تلقى بنفسها على السرير ، وتندفع باكية، تنشج نشيجا مخنوقا كأنه زفير مرجل يغـلى . وعدت على أطراف أصابعى وقـد شعرت بشىء من الضيق والأسف يغزو قلبى

وآلمتنى حالتها ، فعزمت على رد الدفتر اليها . وبينما كنت فى حجرتى أفكر فى الطريقة التى أتبعها فى ذلك ، رأيتها بغتة أمامى ...

شدما كانت مصفرة كالأموات ، تنفسها سريع ، وعيناها جاحظتان ينبعث منهما ضوء مخيف . وقفت صامتة صمتا أرعبنى وهى تحدق فى . ثم مدت يدها وقالت فى صوت منخفض بلهجة الآمر :

أعطنى الدفتر !

وقمت على الفور ، فأخرجت الدفتر من موضعه ، وناولتها اياه . تم ذلك فى فترة وجيزة وعلى أيسر وجه . وخرجت هى سريعة الخطا ،

وخيل لى أن خفق قدميها كان يقول :

« دنىء . . سافل . . دنىء . . سافل ! »

وأردت أن أضحك ، فلم أستطع . وفاجأنى اختناق ، ففتحت الشباك ، وجعلت استجدى الهواء لرئتى

لم تظهر « صفاء » طول النهار . وقامت فى نفسى رغبة جامحة لأن أترضاها . وسرت حتى باب حجرتها . ولكننى ارتددت ثانيا وأنا كالمخبول ، لا أدرى ما أفعل . . . وأمضيت يوما نكدا ، وليلة ليلاء ، وكنت أعجب لنفسى : لم كل هذا القلق ؟ أمن أجل هذه الحادثة التافهة ؟!. .

وفى صباح اليوم التالى جاءت والدتى وأيقظتنى . وما كدت أفتح عينى ، حتى بادرتنى بقولها :

صفاء غير موجودة فى المنزل !

فصحت :

أين ذهبت ؟

ـ لا يدرى أحد

وقفزت من السرير ، وهرولت الى حجرتها . كانت فى حالة مهوشة ، فجعلت أبحث وأدقق فى البحث ، فلم أعثر على أثر يلقى أى شعاع على سر اختفائها

*

وقضيت أياما وأنا مشغول بالبحث عنها ، أسأل الجيران ، وأستجوب الخدم ، وأفرض الفروض ، وأرسم الخطط ، وأجوب الأمكنة القريبة والبعيدة . . . ولكن كل ذلك بلا جدوى !

وأخيرا بدأ اليأس يخيم على قلبى ، فأيقنت بأن مكروها أصابها ، وثار بى ضميرى فشعرت به يخزنى بنصاله المسنونة ، ولا يدع لى الفرصة لأن أتنفس بهدوء . واعتقدت اعتقادا جازما أنى وحدى

المسئول عنها ، وبدأت أعصابى تخذلنى : فأقل حركة تحدث على مقربة منى كانت كافية لأن تجعلنى أقفز مرتاعا لأتجنب رؤية منظرها وهم آتون بها جثة مضرجة بالدماء !

وفى سويعات هدوئى كانت تتمثل لى وهى بملابسها المحتشمة تغدو وتروح فى الدار تملؤها حركة ونشاطا . وعجبت من نفسى كيف أن حبها للعمل ورغبتها فى الاحتشام كانا يسببان لى ضيقا ، مع أن هذين الأمرين أصبحا الآن يثيران فى قلبى كل عطف وتقدير

ومضت الأيام وأنا معتكف فى منزلى لا أبرحه الا قليلا . . . وبدأت أطيل التفكير فى أسلوب حياتى ، وأثور على نفسى متبرما ساخطا

*

انقضت ثلاثة أعوام على ذلك ، وكنت قد انتقلت مع أمى الى بيت صغير فى « الروضة » عشنا فيه عيشة متواضعة بعد أن وفيت ديونى ، ودبرت مالى

ونشطت نفسى للعمل ، فأقبلت عليه بشغف وهمة . وتطور نظام حياتى ، وسارت أمورى فى نجاح مطرد . ولكننى لا أنسى تلك الساعات التى كنت أقفها أمام صورة « صفاء » منعما النظر فيها ، أفكر فى مصيرها ، وأية ميتة لاقتها ؟ وما الذى كانت تضمره لى فى قلبها ساعة رحيلها ؟ كنت أقف أمام صورتها أسيرا لحزن شامل ، أشعر فى أعماق فؤادى بحنين شديد اليها . وكثيرا ما طاف بفكرى أنها قد تكون حية ، فتتملكنى نشوة فرح ، وأعتزم فى حماس أن أعود الى بحثى وتنقيبى عنها

وثقلت على وطأة العمل ، فوجدت صحتى تتهدم ، وحتم الطبيب على السفر الى مكان صحى جيد الهواء ، أنشد فيه راحتى ، فاخترت « لبنان »

وصلت الى « بيروت » ورأيت أن أبيت ليلتى فيها ، فقصدت فندق « الشرق الجديد » المشرف على البحر ، وقضيت وقتى مستلقيا على فراشى أستمتع بلذة الكسل ، وجلبة المستحمين وهى تصل الى هادئة لطيفة قد

رقت وصفت بعد ارتقائها الطبقات الثلاث ، حيث اخترت حجرتي في أعلاها

وكانت ليلة مقمرة تغرى الشعراء بالنظم ، وتفعم قلوب المحبين بالأماني والأحلام . . . وعزمت أن أتناول عشائي في شرفة حجرتي. وازدادت رغبتي في ذلك عند ما تذكرت أن مطعم الفندق ما هو الا جزء من مرقص ساهر يزدحم كل ليلة بطلاب اللهو ، يقضون ليلتهم حتى مطلع الفجر، يسمعون «الجازباند» ويشاهدون ألوان الرقص المختلفة . . وسمعت قرعا على الباب . ودخلت الخادمة تستأذن في اعداد الفراش وترتيب الحجرة ، وناولتني اعلانا ملونا من اعلانات المسارح ، وهي تقول مبتسمة :

فرقة النجوم ، فرقة جديدة ستبدأ رقصها الليلة عندنا

وألقيت نظرة خاطفة على الاعلان ، وأنا أقول :

فرقة جوالة ليست بذات شأن على ما يلوح لي

ـ يظهر أن سيدي يريد أن يقضي الليلة هادئا بعيدا عن الضوضاء

ـ وهل تظنين أنني أجازف بليلتي في سبيل مشاهدة فرقة كهذه ؟

ووقع بصري في تلك اللحظة على صورة راقصة من راقصات الفرقة. استرعت انتباهي على الفور ، فأخذت الاعلان وأدنيته مني ، وجعلت أحدق اليه . ثم وضعته جانبا وأنا أضحك من نفسي ، وواصلت كلامي مع الخادمة :

ألا يمكنك أن تحملي عشائي الى هنـا ؟ أريد أن أتناول الطعام في الشرفة !

ـ بكل سرور يا سيدي !

واشتغلت المرأة بترتيب الفراش . ووقفت صامتا مأخوذ الفكر ، ثم امتدت يدي الى الاعلان ، ورأيتني أنظر الى صورة الراقصة في اهتمام شديد . وقرأت اسمها المكتوب تحت رسمها فاذا به : « زهرة الوادي»

وسألت الخادمة :
أهى أسماء حقيقية تلك التى تسمى بها الراقصات ؟
ـ كلها أسماء مستعارة
ثم جعلت تضحك مستهزئة ، وتقول :
بنفسجة . لؤلؤة . زهرة الوادى . . .
ـ يظهر أن جميع أفراد الفرقة من السوريات !
ـ لا تغرنك الظواهر يا سيدى . انها تضم مختلف الجنسيات ، فيها الرومية والأرمنية والمصرية . . .
ـ والمصرية أيضا ؟
وخرجت الى الشرفة ضيق الصدر ، وجعلت أفكر فى أخلاط من الأمور ، وأنا أنظر الى البحر نظرات غير مستقرة . وبعد حين هرعت الى الحجرة ، وقلت للخادمة :
لقد غيرت رأيى بشأن العشاء . سآكل فى المطعم . خبريهم ليحجزوا لى مائدة صغيرة هناك
ـ حسنا يا سيدى . . . مساء الخير !
ـ مساء الخير . . .
وما ان تركت الحجرة حتى أخذت فى ارتداء ملابسى ، وأنا أشعر بقلق يستحوذ على . وقبل أن أخرج دسست الاعلان فى جيبى
أتممت عشائى ، تتجاذبنى شتى العواطف : ضيق . استخفاف بالأمور . سخرية من نفسى . . . وهلم جرا . وكان الاعلان على المائدة نفسها أتطلع اليه فى الحين بعد الحين . ولما انتهيت من عشائى قمت الى المرقص ، واحتللت مكانا قريبا من المسرح . . . وبدأ التمثيل ، وعلت فى الجو نغمات الموسيقى وضجة الرقص والأغانى ، واختلط كل هذا بضوضاء المتفرجين ، وهم محوطون بالنساء والكئوس ، فاذا بالجو خانق مضطرب يزهق الأرواح ويصم الآذان . . .

وأخيرا ظهرت « فرقة النجوم » ، فأخذت أتصفح وجوه أفرادها وجها وجها ، حتى عثرت على « زهرة الوادى » وتعلقت عيناى بها لا تبرحانها ، وارتجفت . يا لله من هذا الشبه العجيب ! ولكن كيف ؟! هذا غير ممكن . أين هذا التبذل من ذلك الاحتشام ؟ وأحسست كأن قلبى ينصهر . وجعلت أحقق النظر فيها ، وهى تتنقل على المسرح بجسمانها الضئيل تعرضه فى خلاعة على أنظار السكارى . وكانت تبتسم متكلفة تحاول اقتناص القلوب الضعيفة ... كل شىء فيها يصرح بالخسة والضعة ...

ودهمنى ضيق ، فما وسعنى الا أن أعجل بالخروج ... وسلكت شارع البحر وأنا أطلب الهواء فى تلهف . وكان النسيم الرطب يهب على وجهى هبوبا متواصلا ، فكأنه رشاش منعش من الماء ينسكب على رأسى ... وأخيرا هدأت ثائرتى بعض الهدوء ، فوجدت أنى لم أبعد عن الفندق كثيرا ، وأنى قطعت شارع البحر جيئة وذهابا مرات ... وعدت الى الفندق ، ووقفت أمام باب المرقص وأنا متحير . ثم تقدمت الى شخص من خدم المحل ، وكان خارجا يقضى أمرا ، فاستوقفته ، وقلت له :

ألا تعرف فى أى فندق تقيم فرقة النجوم ؟..

فنظر الى الرجل نظر فاحص خبير ، فأدخلت يدى فى جيبى أعد النقود ، فنطق على الفور :

فى فندق أبو عريف بباب ادريس

فناولته منحة . وركبت على التو سيارة حملتنى الى قهوة وضيعة أمام فندق « أبو عريف » . واتخذت مكانى فى ركن منفرد يشرف على المنزل ، فاذا بى أمام بناء حقير مهدم

مكثت الساعات أنتظر وأنا أقلب الأمور على شتى الوجوه ، فكنت دائما أصل الى نتائج متناقضة تزيدنى حيرة وانقباضا ... وأخيرا رأيتها ،

كانت قادمة مع سرب من زميلاتها تشاطرهن الضحك والكلام ... وصدمتني ضحكتها ، ولم يعد للشك سبيل الى قلبي... وأخذت أذرع الطوار بخطوات مضطربة ، ثم اتجهت نحو فندق « أبو عريف » وولجت الباب ...

وبعد لحظات قليلة كنت أمام حجرتها ، بعد أن دلوني عليها، وقرعت الباب وقلبي يكاد يثب من صدري ، وسمعت الاذن بالدخول . ولكني لم أتقدم خطوة ، وخطر ببالي أن أهرب ... وفتح الباب اذ ذاك ، ورأيت نفسي أمامها وجها لوجه ، وحالما وقع نظرها على ، وقفت مصعوقة ، وقد غدا لونها كلون الموتى ... ومرت هنيهات لم ينبس فيها كلانا بلفظ ، ثم رأيتها تنظر الى نظرة تحد واحتقار ، وقالت :

ماذا جئت تعمل هنا ؟

فلم أجب ... واستأنفت قولها :

ماذا تريد أن تعرف أكثر مما عرفت ؟ ألم تشبع بعد فضولك ... أخرج .. اني أطردك .. أسامع ؟!..

ورأيتها تشير باصبعها نحو الباب . فلم أتحرك ، ووقفت مكتوف اليدين وأنا أنظر اليها . وسمعتها تقول :

ما الذى تنتظره ؟

فأجبتها مخلصا :

أنتظر منك كلمة الرضا والصفح

وبدا على محياها بعض التأثر . ومثلت صامتة . ومضيت فى حديثى فى تلك اللهجة التى يتجلى فيها الصدق والاخلاص ... قلت :

ثلاثة أعوام كاملة قضيتها دائم التفكير فيك ، وقد بذلت كل ماوسعنى من حيلة وجهد للعثور عليك ، فلم أوفق . ولولا اقتناعى بأنك لم تعودى فى دنيانا هذه، لما ونيت أو فترت همتى . والآن لن أتخلى عنك مطلقا ..

ستعودين الى سابق حياتك معي ، ولكنك ستجدين بجوارك انسانا له ضمير واحساس وقلب !

وتقدمت نحوها ، ومددت لها يدى ، وأنا أقول :

ألم تفهمى بعد يا صفاء ... انى أحبك . لم أشعر لأحد بمثل ذلك الحب فى حياتى كلها...

وكانت تنظر الى نظرات مختبلة . أتسمع حقا من فمى هذا الكلام ؟ أجاد أنا فى قولى أم هى دعابة من دعاباتى الجريئة ؟

وسمعتها تغمغم فى خفوت :

اذهب وارحمنى ...

وانحنيت على يديها وأخذت أقبلهما قائلا :

سامحينى ... سامحينى !

ورأيتها تخفى وجهها فى يديها وتبكى . وعلا نشيجها كطفل يطلب حماية أمه وحنوها . وسمعتها تقول هامسة :

انى لا أستحق منك كل هذا ... لا أستحق كل هذا !

فأجلستها بجانبى ، وأحطتها بذراعى ، وأخذت أقول :

سوف لا نفترق بعد اليوم يا صفاء . لن نفترق مطلقا ...

ثم جعلت أحدثها ، فرويت لها ما تجهله من حياتى بعد اختفائها ، وأسهبت لها فى وصف حياتنا المستقبلة ، وكيف تسعد والدتى بعودتها الينا ... حدثتها طويلا عنى وعن والدتى وعن المستقبل ، ولكننى لم أفتح فمى بسؤال عن حياتها فى أثناء اختفائها

... وخرجت من حجرتها ، وقد تم الاتفاق بيننا على أن أمر بها غدوة ، لنأخذ طريقنا معا الى « مصر »

*

قصدت فى مطلع الصبح الى فندق « أبو عريف » وصعدت الى

حجرتها ، وقرعت الباب ، فلم أحظ بجواب ، فدخلت الحجرة فوجدتها خالية . وأجلت بصرى فيما حولى ، فوقع على ظرف موضوع على خوان الزينة ، فى مكان يسترعى النظر ، وكان معنونا باسمى . فأخذته وأنا دهش متوجس . وفتحته فاذا بى أقرأ :

« اعذرنى اذ لم أف بوعدى لك ... ألف ألف
شكر على صنيعك الليلة معى ... الوداع !..
صفاء »

وخرجت والرسالة فى يدى ، مطأطىء الرأس ، مضطرب الخطا !

قلب كبير

كانت « سميرة هانم » جالسة فى حجرتها ، غارقة فى أحزانها ، ترتدى السواد كعادتها ، لا زينة ولا عطر ولا حلى . . . نظرات ساهمة ، وهدوء ينطوى على نيران مكبوتة ، ووداعة تمتزج بشباب وجمال عبثت بهما قسوة الأحداث

وبينما هى على هذه الحال ، دخلت عليها « ميمى » ابنتها . فتاة فى الخامسة عشرة ، لها جمال أمها المولى ، ذلك الجمال الذى يشعرك بالطمأنينة والهدوء ، ولا يثير فيك القلق والثورة . أما عيناها فزرقاوان بلون البحر العميق المتناهى فى العمق ، لا تستطيع سبر غورهما ، فتقنع منهما بما تعكسانه على صفحتيهما من حس دقيق وأحلام بعيدة المدى . .

ما زالت « ميمى » ترى أمها منذ توفى زوجها على حالها تلك ، وكان يؤلمها بل يحز فى قلبها أن تراها كذلك ، وهى التى لم تذق منها الا محض عطف ورحمة وتدليل

كانت أمها فى هذه المرة حزينة حقا ، لا كما كان يظهر من حزنها فيما مضى ، دامعة العين ، ولكن فى دموعها لوعة وقلقا لم ترهما الابنة من قبل

وفهمت « ميمى » كل شىء : كانت أمها تحتفل بذكرى العام الثانى

لوفاة زوجها ، تحتفل به فى قلبها احتفالا صامتا مهيبا . وجلست الفتاة، وطوقت خصر أمها فى سكون ، ثم مالت برأسها على صدرها . ولاطفت الأم يد ابنتها ، ثم حملتها فى غير كلفة الى فمها ، وقبلتها قبلة عميقة !

ومكثتا كذلك وقتا غير قصير ، ثم قامت « ميمى » فى لطف ، وتركت الحجرة ، وعادت بعد قليل حاملة كوبا من شراب الليمون ، وقدمته لأمها قائلة :

اشربى يا أماه . . . اشربى !

وألحت عليها حتى شربت الكوب بأكمله !

وجلست « ميمى » على وسادة بالقرب من أقدام أمها ، وقالت فى عذوبة :

لقد قرأت أمس قصة طريفة أريد أن أسمعك اياها ، فهل تقبلين ؟

فابتسمت الأم ، وقالت :

وهل يخطر ببالك ألا أستمع لحديثك يا ميمى ؟

فأخذت الفتاة تقص عليها القصة ، ونظراتها لا تفارق عيون أمها ، ويداها محيطتان بيدى أمها ، ووجهها مشرق بابتسامة ساحرة ، وقد تفتح هذه الابتسامة أثناء رواية القصة عن ضحكة بهيجة تفيض سذاجة وطهرا

وكانت القصة مسلية حقا ، بها مواقف مضحكة . وقد قصتها الفتاة فى لباقة وحسن صياغة ، فأنصتت لها أمها فى اهتمام ، وكانت تسأل ابنتها فى بعض التفاصيل ، فتحاورها الفتاة، وقد تضللها أحيانا فى مداعبة، ثم تعود فتخبرها بالحقيقة . . . وتصيح كلتاهما فى ضحك وملاطفة

وبعد انتهاء القصة ، ظلت « ميمى » على حالها من البشر والنشاط والحركة الدائمة . وقد عجبت « سميرة هانم » فى بادىء الأمر لهذا الانقلاب الغريب الذى طرأ على ابنتها ، وهى الفتاة الهادئة الساكنة ، المقتصدة جهد الامكان فى اظهار سرورها ، البخيلة دائما بكشف ماخفى

من احساساتها، هى التى تقضى وقتها : اما أمام كتابهـا تلتهم صحائفه التهاما ، واما ناظرة قبالتها نظرة تائهة ، غارقة فى أحلام لا نهاية لها !

وبعد الغداء عادت « سميرة هانم » الى حجرتها ، لتقيل على حسب عادتها . أما « ميمى » فذهبت الى الشرفة ، وجلست على المقعد الفسيح، ثم أطلقت لأفكارها العنان ، وأخذت تعرض مناظر من حياتها الماضية.

. . . وتركت « ميمى » الشرفة ، وقد استولت عليها فكرة غريبة ، وقصدت على الفور الى حجرة مربيتها ، وأخذت تحدثها فى اهتمام ، وتتوسل اليها لتجيب سؤلها

واستيقظت الأم بعد العصر بقليل ، وبعد أن تناولت قهوتها ، دخلت عليها « ميمى » وكانت تحمل فى يدها شيئا ملفقا ليس بالصغير ، ودنت من أمها فى اشراق ، وقبلتها ، ثم قالت لها فى الحاح :

عدينى أن تجيبينى الى طلبى يا أماه !

فابتسمت « سميرة هانم » ، وقالت :

أريد أن أعرف أولا هذا الطلب

فقبلتها « ميمى » قبلة طويلة ، وقالت :

بل عدينى قبل أن تعرفى !

وانهالت « ميمى » عليها بقبلاتها جزافا . كانت تطبعها هنا وهناك فى الحاح . . . فأذعنت الأم ، وأعلنت رضاها . فقالت « ميمى » توا :

اذن قومى يا أمى . . قومى !

وقامت الأم ، فقالت لها الفتاة :

اخلعى ثوبك هذا !

وبهتت « سميرة هانم » وكادت ترفض ، لولا أن بدأ سيل القبلات ينهمر عودا على بدء ، ويعمل عمله المعجز . فخلعت الأم ثوبهـا ، وأخرجت « ميمى » على التو مما فى يدهـا ثوبا جميل اللون ، بديع التفصيل ، وطلبت من أمها أن ترتديه . وأخذته الأم ، وجعلت تقلبه

بين يديها وهى تنظر تارة اليه وتارة الى ابنتها . وكانت نظراتها هذه فى بادىء الأمر نظرات دهشة وحيرة ، ثم تحولت بعد ذلك الى نظرات اعجاب وحنو : اعجاب بالثوب الجديد ، وحنو على ابنتها ... وأخيرا وقفت تحدق فى الفتاة طويلا وهى صامتة، وقد أخذت تفطن الى السر. وخنقتها عبرة مكتومة ، أسرعت الصبية فبددتها بحديث ظريف عن الثوب وجودة نوعه ، ومتانة صبغته ، كأنها بائعة لبقة . وارتدته «سميرة هانم » ، وجعلت تتبينه . كان حقا بديعا فى تفصيله ، بديعا فى لونه ، بديعا فى شكله ، يشهد بحسن ذوق من انتقاه

وأخذت الأم تنظر الى خيالها فى المرآة ، وهى تستدير أمامها مرات كثيرة . وقالت :

ولكن كيف تم ذلك يا حبيبتى ؟

ـ انه لك وكفى !

فقالت الأم ، ونظراتها ما زالت عالقة بالمرآة :

كأنه فصل خاصا لى !

فأجابت « ميمى » فى تخابث :

ان جميع أثوابك القديمة التى تعطين مربيتى اياها، توافقها كل الموافقة، وكأنها فصلت لها خاصة

فنظرت اليها مبتسمة ، وقالت :

اذن هى التى قيس الثوب عليها !

ـ والآن اجلسى يا أمى ... اجلسى !

وأخرجت الفتاة مما فى يدها علبة ذرور « بودرة » وزجاجة عطر ، وأخذت « تبدر » وجه أمها وتعطره ، ذلك الوجه العطشان الذى لم يمسه الذرور ولم يندہ العطر عامين كاملين . وكانت الأم تنظر الى ابنتها فى صمت وابتسام . وبعد أن انتهت « ميمى » من عملها هذا ،

وجهت عنايتها الى شعر أمها ، فأخذت ترجله وتصففه فى مهارة لا تقل عن مهارة الحلاق الفنى

وأخيرا ابتعدت عن أمها ، وهى تتأملها طويلا ، ثم صاحت فى حماسة :
ما أملحك وما أجملك يا أمى !.. شدما أنت فاتنة !

وأحست « سميرة » بقلبها يرتجف ، وأنصتت الى جملة ابنتها كما ينصت التائه فى الصحراء الى صوت منقذ . وجعلت تستعيد كلماتها وتتذوقها وهى فى شبه حلم . . .

ونظرت الى شبحها فى المرآة ، فاذا بها ترى أمامها امرأة أخرى لا تمت بصلة الى صورتها . . . امرأة مشرقة الوجه ، كلها نور وحياة

ووضعت يديها على وجهها تتحسسه ، أحقا هى نفسها التى ترى خيالها فى المرآة . . . أحقا أنها ما زالت انسانة تحيا بين الأحياء ، فتية يجرى فى عروقها دم الشباب الحار ، حسناء تفتن الأنظار ؟

وضمت « سميرة » ابنتها طويلا ، واندفعت تبكى !

وخرجت « ميمى » ومعها الثوب الأسود المخلوع ، وهرعت الى حجرتها ، فألفت مربيتها جالسة تحسب ، فانحنت عليها ، وقرأت ما كان مكتوبا فى الورقة :

	م
ثوب	٣٢٥
زجاجة عطر	٥٥
علبة ذرور (بودرة)	٣٠
المجموع	٤١٠

فقالت « ميمى » :
ولكنك نسيت أجرة المركبة يا دودو
ـ حقا نسيتها . . . ما أغبانى !
وأضافت المربية الى القائمة خمسة عشر قرشا

فقالت « ميمى » فى بساطة :

كم يبقى من نقودى اذن ؟

ـ أربعون قرشا يا حبيبتى

ـ هذا كاف لأن تشترى الكتاب الذى حدثتك فى شأنه ، أليس كذلك ؟

ـ بلا شك

ودفعت « ميمى » الى مربيتها ثوب أمها الأسود ، وقالت لها :

افعلى به ما تريدين ، لن تعود أمى الى لبس السواد !

وخرجت المربية ، ومعها الثوب ، وأحست الفتاة أنها فى حاجة الى أن تستريح ، فألقت بنفسها على السرير . ثم مدت يدها تأخذ منديلا من صوان الأثواب ، فاعترضتها صورة ، فأخرجتها ، فاذا هى صورة أبيها ، تمثله على فراش المرض : رجل فان يحاول الابتسام ، تدل ملامحه المتقلصة على تعلقه الشديد بالحياة !

ونظرت « ميمى » فى الصورة طويلا ، وأخذ وجهها يكتسى بغمامة قاتمة . . . وأدنت الصورة رويدا من فمها ، وقبلتها فى هدوء ، ثم وضعتها على صدرها ، وأحاطتها بذراعيها ، وقد أطبقت جفنيها

وأخذ خطان من الدموع يسيلان على خديها !

ابتسامة

ان يوم ٢٨ يوليه سنة ١٩٢٥ يوم لا يستطيع أن ينساه ، فقد وقعت له فيه حادثة ، حادثة صغيرة ليست فى رأى الناس بذات بال ، ولكنها شغلته وأثرت فى نفسه وقتا غير قصير

كان يقضى الصيف فى « الاسكندرية » ، واعتاد أن يحضر الحفلات الموسيقية التى تقيمها ادارة « ملهى سان استفانو » صباح الأحد من كل أسبوع . يذهب ليسمع الموسيقى ، ولكنه لم يكن يسمع منها كثيرا أو قليلا ! لقد كانت ضجة الحاضرين ولغطهم يحولان دون وصول النغم حتى الى الصف الأول ، وهذا الدخان المنعقد فى الجو ، المتحد ببخار الأشربة المختلفة ، وهذا السيل الجارف من الضحك والمداعبات ، كل ذلك كان يقلب المكان من ناد رفيع لسماع الموسيقى، الى نوع من أنواع المراقص الساهرة

واتضح له فيما بعد أنه لم يكن يذهب الى هناك ليسمع الموسيقى ، بل ليسرى عن نفسه بمرأى هذا الجمع الزاخر من الآدميين، هذا الجمع المطبوع على حب الظهور والتكلف والادعاء

ولفت نظره بين هذا الجمع شخص ، وجده يختلف عن الباقين اختلافا بينا. كان هذا الشخص فتاة اختارت مكانها قريبا جدا من الفرقة

الموسيقية ، شديدة الاصغاء اليها ، والاهتمام بمقطوعاتها التى تعزفها . وسيمة الطلعة ، هادئة القسمات ، تشى نظراتها وتنم حركاتها عن براءة وطهر . وهى تحضر دائما قبل الميعاد ، وبيدها كتاب ، يتبعها أخوها الصغير . فاذا ما استقر بها المقام ، فتحت الكتاب وأخذت تطالع فيه ، حتى تبدأ الفرقة فى العزف

وأخذ ينسى الضجة واللغط والمظاهر السخيفة ، وانحصر همه فى مراقبة هذه الفتاة . وأحس أن عطرا خفيفا محببا ينبعث منها ويعطر المكان بأسره . وألفى نفسه فى الأحد بعد الأحد يتقدم بمكانه محاولا الاقتراب من مكانها . وشعرت هى بوجوده وبما كان يغمرها به من التفات وعطف ، فقابلته بالرضا ، ولكنها لفرط تحفظها وشدة حيائها لم تبادله حتى النظرة الواحدة !

ففى يوم ٢٨ يوليه ، وقد انتهت الحفلة الموسيقية ، وشرع الجمع يتحرك للخروج ، وازداد الضجيج ، واشتد حماس النظارة ، وقع بصره بغتة على صديق له ـ كان يسير غير بعيد من مكان الفتاة ـ فأشار اليه يحييه ويبتسم له ، وشعرت الفتاة بحركته ، فالتفتت اليه على الرغم منها ، وظنت أنه يحييها ويبتسم لها ، فاختلج قلبها ، وابتسمت له ترد التحية فى وداعة وحياء . وسرعان ما تبين لها خطؤها فاربد وجهها ، وساد الارتباك حركاتها . . . فاندست وسط الزحام مسرعة الخطا ،وهى ممسكة بيد أخيها . . .

ومر هذا المشهد خاطفا أمام الفتى ، فأحس ألما شديدا . وقامت به رغبة ملحة ليلحق بها . . . ولكن لماذا ؟ أليعتذر عن خطأ لم يرتكبه ؟ أم ليطيب خاطرها الذى جرحه سوء فهم منها ، فيزيد الأمر اشكالا وتعقيدا ؟ . . على أن عقله لم يسع هذا المنطق ، فانطلق خلفها يجد فى السير ، شاقا طريقه بين هذا الجمع الكثيف المتراص ، فكأنه يشق سدا منيعا . وسمع زمجرة الناس تتبعه وتسبقه وتحلق فوق رأسه . وانقلبت

الزمجرة الى فيض من السباب اللاذع ، ثم تحولت الى لكمات جريئة محكمة ، وهو ماض فى طريقه لا يعنى بشىء مما حوله . كانت صورة الفتاة تحتل مخيلته ، يرى وجهها بقسماته الهادئة يلتفت اليه ويحييه فى ابتسامة عفة ، ثم يرى هذا الوجه وقد اكفهر وارتد مقهورا ذليلا !

ظلت هذه الصورة تتراءى متتابعة أمام عينيه ، فيشتد ألمه ، وتقوى رغبته فى اللحاق بها . فأخذ يدور هنا وهنالك أمام باب الملهى وفى محطة الترام ، وحول المنازل القائمة فى ذلك الحى ... ولكن كل محاولاته ذهبت سدى ، فقد اختفت الفتاة ، كأنها قد تحولت فى لحظة الى بخار من أبخرة الجو سرعان ما يتزايل

وعاد الى بيته مهموما يائسا يشعر بخيبة ذليلة. وقضى الأسبوع وهو يفكر فى أمر هذه الفتاة وما سببه لها من ألم . لو كانت فتاة كسائر الفتيات لما همه أمرها ، ولكنها الصبية الممتازة بذلك الشعور المرهف ، والنفس الصافية . فلا بد أن يكون لهذا الحادث الذى وقع أبلغ الأثر فى نفسيتها . انها بلا شك قد تألمت وستتألم كثيرا

وتعزى بأنه سيراها فى الحفلة القادمة ، فانه يذكر جيدا أنها لم تتخلف مرة واحدة عن الحضور . وحل يوم الأحد ، فلم تحضر ، فعجب ، وجعل يفكر طويلا ، وقد حملته الظنون كل محمل . ولكنه لم ييئس من مقابلتها ، فالحفلات القادمة كثيرة ، وحبها للموسيقى لن يدعها تتأخر طويلا !

وكرت الأيام ، وصاحبنا يقصد الى الملهى ينشد فتاته ، وهى لا يرى لها ظل ، ولا يظهر لها أثر . ولقد كان يبغى رؤيتها ومقابلتها ، ولكنه لم يكن يدرى ما الذى ينتوى أن يقوله وأن يعمله معها ، وما هو نوع الحديث الذى سيتفوه به أمامها . كانت رغبته الأولى والأخيرة أن يقابلها وكفى !

وتتابع مر الأيام والفتاة مختفية ، ولكن ذكراها كانت تعاوده ...

وانتهى موسم الاصطياف ، وعاد الى القاهرة ، وبدأت حادثة الفتاة تتضاءل فى فكره حتى كادت تختفى

. . . ورجع الصيف ، فشد الرحال الى « الاسكندرية » ، وعادت الحياة تدب دبيبها المزعج فى الملهى ، وأخذت أنواره المختلفة الألوان ، الخاطفة للأبصار ، تتخايل على الحاضرين فتزيدهم نشاطا وابتهاجا

وعادت حفلات الأحد ، وظهرت فرقة الموسيقى على منصتها ترسل نغماتها الخجلة المتعثرة الى الجمع المحتشد أمامها تستجديه انصاتا ، والجمع منهمك فى صخبه ينظر اليها نظره الى النقوش المبتذلة ، والى التماثيل والتحف المصنوعة من الورق المقوى ، مما يزخر به المكان استعدادا لمهرجان المساء

وآنس من نفسه انسياقا الى حضور هذه الحفلات الموسيقية صباح كل أحد ، يتناول شرابه المذكى للشهية ، ويدخن بضع لفافات من التبغ ، ويحشو أذنيه بتلك الضجة المتصلة الحلقات ، ويلقى نظرة عابثة على هذا النفر المزيف من عباد الله المترفين

وحدث يوما أنه بينما كان جالسا فى مكانه ، ينقل بصره بين الحاضرين فى غير اكتراث ، اذ وجد عينيه قد تعلقتا بسيدة فلم تبرحاها . . . وأخذ ينعم النظر فى هذه السيدة ويتفحصها طويلا ، ثم برق وجهه بغتة بابتسامة مشرقة ظافرة ، وأحس شيئا غريبا ينطلق مارقا من قرارة قلبه كما ينطلق الجنى المحبوس فى قمقمه ينشد الحرية والسلطان !

وقام من فوره مدفوعا بقوة لا تغلب ، وأخذ يشق طريقه كيفما اتفق ، لا يلوى على شىء ، ولا يبالى دفع هذا أو ركل ذاك ، أو قلب مائدة ، أو أطار قبعة أو طربوشا . . . كان يسير ووجهته هذه السيدة ، حتى اذا ما انتهى اليها ، وقف تجاهها لحظة وقفة الابتهال والخشوع ، ثم انحنى وأمسك بيدها فى رفق ، وطبع عليها قبلة عميقة حارة ، قبلة تجمع فيها شوقه وحنينه ورغبته فى التكفير . فكان أن نظرت اليه

السيدة نظرة مبهمة يخالطها الكثير من الدهشة. ولكن سرعان ما تركها الى الخارج ، لا يعبأ بما اعتراها من دهشة وذعر ، ولا يكترث لما بدا على وجوه الناس حوله من تذمر وتحفز !

تركها ، وفر الى شاطىء البحر يعدو ، وخيل اليه أن جسمه اكتسى بالريش ، وقد نبت له جناحان ، فهو يطير على سطح الأرض لا يمشى عليها

واستنشق هواء البحر ، أول مرة فى حياته ، فى نشوة وابتهاج !

ذات مساء

كنا مدعوين للعشاء عند صديقنا « رءوف » وبعد انتهاء الطعام جلسنا فى حجرة الضيوف ندخن ونحتسى القهوة ، وانطلقنا ــ على التعاقب ــ نروى حكايات واقعية عن أنفسنا ، كلها من مغامرات الفتوة ، وملاعب الشباب . وكان أحدنا « شهاب بك » شيخا نيف على السبعين ، ولكنه صلب العود ، متين القوة . فلما جاء دوره قال :

من غريب الاتفاق أننى قرأت اليوم خبرا فى الأهرام أثار فى ذكرى قديمة

فقال أحدنا :

لا بد أنها ذكرى غرام !

فابتسم ابتسامة رقيقة ، ثم احتسى جرعة من قدح القهوة . وبعد صمت قليل ، تابع حديثه قائلا :

انها ذكرى حادثة مرت بى فى حياتى ، حادثة تكاد تكون تافهة ، ولكنها تركت فى نفسى أثرا عميقا

واستوى « شهاب بك » على مقعده ، ثم أشعل لفافة تبغ ، ومضى يتكلم فى سكينة واتزان :

كان ذلك منذ عشرة أعوام . وكنت قد تركت وزارة المعارف حيث

كنت أعمل فيها مفتشا للمدارس ، وتفرغت لبحوثى اللغوية ، فيوما زارنى « مهران بك » الشاب الثرى الظريف ، وكان على الرغم من اختلاف العمر بيننا يودنى ، لما سلف بينى وبين أبيه من صداقة وثيقة العرا ، وأخبرنى بأنه يدعونى الليلة معه لمشاهدة احتفال فاخر فى «ملهى توفيق » ، فقلت له :

أى احتفال ؟!

ـ لا تظن أنه احتفال سيتبارى فيه اللغويون والمؤرخون !

ـ اذن ليس لى فيه نصيب

ـ بل أكبر نصيب . انه حفل راقص !

ـ راقص !؟

ـ ألم تسمع بـ « زهرة قرطبة » ؟

ـ لم أسمع قط ؟!

ـ أنت لست من أهل الدنيا يا صديقى ، لذلك جئت لأخرجك من معزلك ولو مرة واحدة لأريك مباهج الحياة

وألح على ، فقبلت دعوته

وتعشينا فى « الكونتننتال » ثم قصدنا الى « ملهى توفيق » لنشاهد الراقصة الأسبانية العالمية « بالوما دى كوردوفا » تعرض مع فرقتها الذائعة الصيت ألوانا من الرقص الفنى الرفيع . وكان معنا « عنانى » الرفيق الدائم لـ « مهران بك »

أخذنا مجلسنا فى المقصورة الأولى الممتازة المقاربة للمسرح . وكان « ملهى توفيق » ينافس « الأوبرا » فى ذلك الوقت بفخامته ، وروعة ما يعرض فيه من فن راق ، وما يتردد عليه من جمهور سرى

ومال على « مهران بك » وقال :

لا تنس أن الليلة هى الليلة الختامية لحفلات « بالوما » . ويقال انها ستعرض فيها أبهى وأرفع ما تحذق من رقصات

ورفعت الستارة ، وبدأ العرض ، ولا أنكر أن ما مر أمام عينى من المشاهد كان خلابا . حركات منتظمة تسير وفق ألحان رائعة ، وأنوار بهيجة ، وأزياء لا تخلو من عبث بالفضيلة . يظهر كل ذلك تارة فى شبه عاصفة مدوية ، وطورا فى شبه نعاس وأحلام . . . وظهرت فجأة راقصة تتلألأ فى ثوب طريف كان يختلف فى لونه ورونقه عما ترتديه الأخريات من مختلف الأثواب . وتجلت عليها أنوار الكهربا فى ألوان شتى ، وضج لها جمهور المتفرجين بالتصفيق ، فغمزنى « مهران بك » فأومأت له أن فهمت

واندفعت « بالوما » ترقص وهى تتثنى وتبسط ذراعيها ، وتهصر عودها ، وتحرك قدميها ، كل ذلك فى مرونة وخفة تستثير العجب . وقد تنفض نفسها نفضة فجائية تتبعها بحركات سريعة من الخصر والثديين ، وتنطلق تضرب بالصنجات فى اندفاع ، وهى تعقد حاجبيها وتزم شفتيها غاضبة ثائرة . ثم يتضاءل رويدا صوت الصنج فتحسب أنه آت من بعيد ، وقد أخذت الراقصة تنعطف بجسمها فى هوادة ، وتتأود وتدور فى خطوات هينة كأنها خطرات النسيم . ثم تهبط على الأرض قليلا ، فتتضاءل مع النور ، ويسود المسرح الظلام والسكون . . . فتهب من الجمهور عاصفة هوجاء من الاعجاب ، وتتجاوب الأصداء بالهتاف والتصفيق

وعادت « بالوما » الى رقصها ، وحانت منها التفاتة الينا فرأيتها تبتسم ابتسامة اختلطت فيها التحية بالدلال . وانطلقت الى الجهة الأخرى من المسرح ، ولكنها ما لبثت أن عاودت ناحيتنا وأخذت تحدق فينا ، فاذا ابتسامتها تحوى معنى من معانى الدهشة . . . وفرت على الأثر الى أعماق المسرح كأنما يلاحقها أحد ، تريد الافلات منه . . . ثم عادت فاتجهت نحونا وأخذت تحدق فينا عودا على بدء ، وقد اكتست لمعة عينيها بأسى ظاهر ، وانطلقت بعدئذ تضرب بصنجها ضربات طائشة

ثائرة ، وتلتوى بخصرها التواء مرهقا . . . ثم رجعت الى فرارها ، تدور فى المسرح ، فتبدو كأنها سجينة محنقة تبحث عن منقذ . . . ثم اذا بها تولى وجهها شطر مقصورتنا وتطيل النظر فينا ، فتنطق عيناها بوداعة بالغة

وشعرت « بمهران بك » يهتز على مقعده هزات اضطراب ، فرمقته ، فغمز لى بعينه ، ثم مال على « عنانى » وهمس فى أذنه قائلا :

مر الساقى أن يحضر شمبانيا من أفخر صنف . . . عجل . . .

وأخذ ينقر حاجز المقصورة بأنامل مهتاجة

. . . وتوالى رقص « بالوما » وهى تنحو فى كل دورة نحونا ، وتتعمد مقصورتنا بنظرها ، وتتوسمنا فى وقفتها توسما أذهلنى

وسمعت « عنانى » يقول « لمهران » :

حقا ، ان انتصارك الليلة عظيم !

ورأيت « مهران » وقد أشرقت طلعته . ثم أسدلت الستارة ، فتعالى هتافه وتصفيقه مع الهاتفين المصفقين ، حتى أشفقت على حلقه أن يتشقق ، وعلى يده أن تدمى . ثم قام وجعل يسير فى المقصورة مزهوا وهو يحقق النظر الى قسماته فى المرآة الصغيرة ، ولما سكنت ثائرته شيئا ما ، انتحى هو و « عنانى » ركنا ، وأخذا يتساران . ولم يلبثا طويلا على هذه الحال حتى سمع نقر على الباب ، فقال « مهران » :

ادخل !

ودخلت سيدة مكتملة العمر ، تلبس السواد ، تنبىء هيئتها بأنها تابعة أو وصيفة لشخص ذى مقام كريم . رأيتها تتقدم منى وتنحنى فى تحية عميقة ، ثم انحنت أمام « مهران » و « عنانى » مسلمة سلام مجاملة عابرة . والتفتت الى وقالت فى أدب كبير وبلغة فرنسية غير أصيلة :

الآنسة بالوما تقرئك السلام ، وترجو أن تقبل دعوتها اياك مع صاحبيك الى حفلة عشاء ساذجة بعد السهرة فى فندق شبرد

فنظرت اليها بمجامع عينى متعجبا ، وقد ساورنى شيء من الارتباك ، ثم أشرت الى « مهران بك » لتوجه الدعوة اليه . فقال للوصيفة :

أرجو أن تبلغى الآنسة « بالوما » تشرفنا بقبول دعوتها الكريمة ، مع السرور العظيم والشكر الجزيل !

فانحنت أمامه ، ثم التفتت موجهة الكلام الى :

اذن موعدنا منتصف الساعة الواحدة فى البهو الكبير بشبرد

وانحنت ثانيا وخرجت . وانطلقت من « عنانى » ضحكة فخمة ، وقال :

يظهر أن هـذه التابعة ظنتك يا سـيد « شهاب » وزيرا من وزراء الدولة . ان عليك مهابة العظماء !

فلم أجبه . . .

وعادت فصول الرقص ، ولكن « بالوما » لم تظهر فيها ، اذ كان دورها قد انتهى ، واستسلمت لصمت مديد ، وأطلقت العنان لأفكارى وأخيلتى . . . ولما اختتمت الحفلة وخرجنا ، أردت أن أصافح « مهران بك » وأعود الى منزلى ، فان دعوته اياى تنتهى فى الواقع هنا . ولكن دافعا داخليا جعلنى أصعد فى العربة معه . وسرعان ما تحركت بنا الى « شبرد » وسمعت « عنانى » يقول لـ « مهران » :

ألا نوصل شهاب بك الى منزله أولا ؟

فضحك « مهران » وقال :

تريد أن تحرمه التعرف بأعظم راقصة عالمية ؟ انها فرصة ليس من الواجب أن نضيعها عليه !

فقال « عنانى » :

ولكن . . انما . . الموضوع يعنى . .

فقلت :

لن أضايقكما طويلا . . .

وبلغنا « فندق شبرد » ، ودخلنا البهو الـكبير ، فاذا بـ « بالوما » تنتظرنا ، وما ان رأتنا حتى تقدمت منا مبتهجة تبدو على فمها ابتسامتها الحلوة الوديعة . ورأيتها تقصد نحوى وتمد الى يمناها فى ترحيب ، ثم صافحت رفيقى . ولما تقدم « مهران » ليصافحها ، أسرعت ولفت ذراعى بساعدها ، وهى تبتسم فى غير كلفة ... وسمعت « مهران » يسعل سعلته العصبية ، و « عنانى » يحاول كتم زمجرته ، أما أنا فكنت أسير فى خطا متعثرة ، ولا أستطيع رفع بصرى الى أحد . وخيـل لى أنى سمعت « بالوما » تحدثنى بصوتها المتنغم الرقيق ، ولكننى لا أدرى بماذا أجبتها ... انها أول مرة فى حياتى يتهيأ لى فيها هذا الموقف !

وأدخلتنا « بالوما » الى حجرة صغيرة أنيقة ، تتوسطها مائدة ، جلسنا حولها . وكانت تبالغ فى الترحيب بى ، ولم تنس صاحبى بالطبع ، ولكن كان ذلك منها تأدبا فحسب

وبدأنا نتناول الطعام ، واندفع « مهران » يمتدح رقصها ، ويتفنن فى المدح ، وينتقى الألفاظ المزوقة والعبارات الرنانة ، كأنه ينظم أبيـات قصيدة لا نهاية لها . فكانت تنظر اليه متعطفة وتشكره ، ثم لا تلبث أن تحول نظرها الى ، وتسألنى رأيى ...

وسمعت « عنانى » يقول بالعربية لـ « مهران » :

يجب أن نفهمها أنه ليس بالوزير ولا بالأمير ، وأنك أنت الكل فى الكل !

ورأيت «بالوما» قد سكتت عن الكلام وقتا، كأنها تلم شعث أفكارها. ثم تنهدت وقالت لى :

دعنى أشرح موقفى معك ... منذ وقع بصرى عليك شعرت بعاطفة قوية نحوك،عاطفة فتاة يتيمة منقطعة نحو أعز شخص عندها،والدها..

وأخرجت منديلى ، وبدأت أمسح به وجهى . وتابعت « بالوما » حديثها قائلة :

منذ رأيتك تمثل لى أبى أمامى ، أبى الذى فقدته منذ طفولتى . . . يا لله لهذه المشابهة الكاملة ! فهل علمت مقدار ما أضمره من الحب له ؟ لم يكن لى أبا فقط ، بل كان أمى ومربيتى وصديقى وكل أهلى . لقد عشت معه عشرة أعوام ونيفا ، وأنا لا أجد أحدا سواه يحنو على ويسهر على راحتى ، ويقوم بأمر تربيتى كأنه أم رءوم

وشعرت بـ « مهران » و « عنانى » يقتربان منا ، ويصغيان . وقالت « بالوما » :

نشأت مع والدى فى كوخ متواضع ، فى بقعة على شاطىء المحيط ، بها أكواخ أخرى متفرقة يتكسب أصحابها من صيد السمك . وكنا فى فاقة وشظف من العيش ، ولكن أبى كان رجلا نشيطا فيه قوة وصبر . يؤدى عمله على الوجه الأمثل ، ويقضى حياة مستقيمة كذلك على أحسن وجه

وأخرجت « بالوما » لفافة وأشعلتها ، ثم قالت وهى تنفخ دخانها :

انها ذكريات بعيدة ، ولكنها منقوشة على صفحات قلبى ، فلن تزول مهما قدم العهد بها . وعلى الرغم من فاقتنا لم أكن أشعر أنه يعوزنى شىء من ضرورات الحياة ، بل تيسر لى كثير مما ليس بضرورى ، فهل مضى عيد لم ألبس فيه الجديد ، ولم أحرز فيه لعبة جميلة ؟ مع أن والدى كان لا يغير ملابسه الا وقد أصبحت غير صالحة للترقيع ، ولا أذكر أنه اشترى لنفسه « غليونا » جديدا . . . وكان اذا عاد من عمله لا يفارقنى ، فهو يجهز لى الطعام ، وينظف معى الكوخ ، ثم يقضى بقية الوقت فى ملاعبة وسمر . وهل أنسى كيف كان يجلسنى على ركبتيه ، ويحيطنى بيديه ، ويغمرنى بقبلاته العذاب ، ثم يأخذ فى قراءة قصص لى على ضوء مصباحنا الضئيل النور ، فلا يمضى وقت طويل حتى أطبق جفنى ورأسى على كتفه ، فأستغرق فى رقاد مريح ، وحلم هنىء ؟ . .

وصمتت لحظة وهى تصوب نظرها فيما أمامها ، ثم تناولت جرعة من كوب الماء ، وتابعت حديثها :

أما أمى فلم أرها ، اذ توفيت وأنا رضيع . وكثيرا ما حدثنى والدى عنها ممتدحا اياها . وكان يتأملنى طويلا ويقول : « ليتك تكونين مثلها يا بالوما ! لقد كانت فضلى الزوجات ، وكانت تحبنى أصدق الحب . لقد قبلت الزواج منى ، أنا الفقير المحتاج ، ولو أرادت لتزوجت من أعظم عظيم فى اسبانيا كلها ، لما وهبها الله من فتنة وجمال ! » يقول ذلك وهو يمسح عينيه النديتين . وكان كلما خرج الى الصيد لابسا معطفه الجلدى ، وحاملا شباكه على كتفه ـ زودنى بقبلاته ، وقال لى بلهجة الواثق : « الى الملتقى يا بالوما . لا تخافى . لن أتأخر طويلا . سأعود اليك حتما » وكان يعود مملوء الوطاب بالسمك ، ويدخل الكوخ مشرق الوجه ومعطفه الجلدى يقطر منه الماء ، فلا يبالى ذلك ، بل يسرع الى فيحملنى الى صدره ، ويضمنى بلهفة ويقول : « ألم أوف لك بعهدى ؟ هل تأخرت ؟ كيف قضيت الوقت ؟ وهل تألمت لوحدتك ؟ وماذا أكلت ؟ » ويوما تأهب للصيد ، وكان الجو مكفهرا والبحر يجأر بأمواجه الغضاب ، ورذاذ المطر يتساقط من غمام أدكن . ووقف أبى مترددا ، ينظر من خلف زجاج النافذة ، ثم لمعت عيناه عزما وفتوة ، وخطف معطفه وارتداه ، ثم حمل شباكه ، ولكنه لم يخرج ، بل وقف هنيهة على عتبة الباب صامتا ينظر الى . ومسح رأسى ، وابتسم لى ابتسامة قلقة . . . ورأيته يقصد الخزانة ويبحث عن شىء فيها . ثم عاد وفى يده زهرة جافة ، وقبلنى فى جبهتى وناولنى الزهرة وهو يقول : « احتفظى بها يا بالوما . احتفظى بها جيدا ولا تفرطى فيها . انها هدية أمك لى على فراش الموت ! » وأمسكت به خائفة ، فلاطفنى وقال : « لا تخشى شيئا . لن أتأخر طويلا . سأعود اليك حتما . الى الملتقى يا بالوما » وخرج سريع الخطا ، ورذاذ المطر يترقرق على معطفه . . . خرج ولكنه لم يعد

وسمعت « عنانی » يقول :

كيف لم يعد ؟

فأجابته « بالوما » وما برحت نظراتها تائهة فى الأفق :

هذا هو الواقع يا سيدى . انه ذهب ولم يعد ، وقد انتظرته طويلا ولكنه لم يعد ... ودارت رحى الحياة دوراتها . ومرت بى أيام شدة وضنك وعذاب . وأخذت أنمو وأتنقل من مكان الى مكان ، ومن بلد الى بلد ، واحترفت الرقص وواتانى فيه نجاح وتوفيق ، ولكن ذكرى والدى لم تبرح مخيلتى أبدا . انه ماثل أمامى بمعطفه الجلدى ، وشباكه على كتفه ، وهو يخطو خارجا من الكوخ !

وسألتها قائلا :

ألم تحتفظى بصورة له ؟

فأجابتنى فى صوت متهدج :

لم تكن له صورة

فأطرقت كاسف النفس . واذ رفعت وجهى اليها ، رأيتها ترنو الى فى توسل حار . ثم انطلقت تسألنى :

أمعك صورة لك ؟

فازداد تأثرى ، ورفعت يدى الى جيبى ، وأخرجت محفظتى ، وبحثت فى محتوياتها قليلا ، ثم تناولت من بينها صورة صغيرة ناصلة ، وأعطيتها اياها ، فنظرت فيها طويلا بشغف ثم تنهدت ، وأمسكت يدى وهزتها هزة الشكر العميق ...

وسمعت « مهران » يقول لها :

والزهرة الجافة ؟!

فأخرجت علبة صغيرة من صدرها وفتحتها ، فاذا فتات زهرة ذاوية ... والتفتت « بالوما » الى ، وقالت :

أتسمح لى بالاحتفاظ بهذه الصورة ؟

ـ ان ذلك ليسرنى !

ـ شكرا يا سيدى ، سأضعها فى العلبة مع الزهرة

وكان الخدم قد بدأوا يطفئون نور القاعة الخارجية ، ويتهيئون للانصراف ، فنظرت فى ساعتى ثم نبهت صديقى . وقمت مستأذنا من « بالوما » ، فشدت بيديها على يدى ، ولبثت وقتا على هذه الحال ، وهى تنظر الى صامتة ، ثم قالت :

ألف شكر على ما وهبتنيه من سعادة ، ان اللحظات التى قضيتها الليلة معك لا تقدر عندى بأثمن شىء فى الوجود !

. . . وسافرت « بالوما » مبكرة فى اليوم التالى ، ولم أسمع خبرا عنها الا اليوم

*

وهنا تنهد « شهاب بك » ونشر صحيفة « الأهرام » بين يديه ، وجعل يقرأ :

« توفيت على مسرح « كوفنت جاردن » بلندن الراقصة العالمية « بالوما دى كوردوفا » على أثر نوبة قلبية ، وهى ترقص رقصتها المشهورة « ليلة فى أشبيلية » ، فقد أغمى عليها فى أثناء الرقص ، وحملت الى غرفتها فأفاقت ، ولكنها لم تلبث أن عاودتها النوبة القلبية فقضت عليها . وقد ماتت وهى ممسكة بيدها علبة صغيرة بها فتات زهرة جافة ، وصورة ناصلة لرجل مجهول الصلة بها . . . »

صحبة الورد

تركت بلدة « تارابيرا » بعد أن قضيت بها شهرا وبعض شهر ، أحاول أن أصلح من جسمي ما أفسدته الأيام ... حقا كنت عليلا منهوك القوى ... عشت في « تارابيرا » كما يعيش المذنب الموضوع تحت المراقبة : الأكل بميعاد، والنوم بميعاد، والاستيقاظ بميعاد ، والنزهة أعد فيها خطواتي خوف الزيادة والنقصان ، والماء الذي أتناوله من النبع يجب أن أقيسه في الكوب على القدر المفروض !..وحجرة الحمام التي أسجن فيها نفسي فترة كل يوم ، معلقة على حائطها ساعة كبيرة متجهمة الوجه ، تسمعني صوتها الغليظ مرة كل دقيقة ، وأنا ممدد في الحوض مغمور بالماء الفاتر الموار ، كأنها تعد على أنفاس حياتي !

تركت بلدة « تارابيرا » فتركت خلفي القيود والأغلال ، تركتها لأنعم بالحرية، آكل ما أشتهيه ، لا ما يفرضونه علي، وأسير في الحقول، فلا أقف الا اذا تعبت ، ولا أشرب الا اذا ظمئت ، حيث لا تلاحقني دقات تلك الساعة البغيضة التي كانت تكرر على مسمعي أني مريض وأني هالك !

حللت في بلدة « شنت » وهي قرية جبلية تكتنفها الغابات ، ليس بها الا ساحة صغيرة وطريق واحد غير ممهد ، تتعثر فيه السيارات ...

فيها فندقان هزيلان ، وطائفة من دور قروية . وعلى هضبة غير بعيدة عنها ــ وهى أحسن مواقع الجهة ــ تقوم الكنيسة والمقبرة. أما الحوانيت فلم يكن منها هناك الا اثنان مصنوعان من الخشب ، مقامان فى الساحة ، يشبهان ظلل بائعى الصحف ولفائف التبغ فى المدن الأخرى ...

بدأت أحيا فى « شنت » حياة راحة واستجمام ، وأطلقت نفسى على سجيتها ، مستمتعا بما يحيط بى من جمال وهدوء وسذاجة

وكان الجو بديعا ... والجو البديع فى عرفى ، هو الجو المتقلب الذى لا يدوم على حالة واحدة ، ففى هذا التقلب سر جماله ... اذا ثقلت علينا الشمس بضوئها وحرارتها ، ظهر السحاب المتكاثف يسوق معه المطر ، فيرطب القلوب ، وينعش الأزهــار ، ويلين الأرض الصلبة القاسية ... حتى اذا اشتد علينا المطر واستطال ، بزغت الشمس ثانية، تحيينا مبتسمة ، وتغمرنا بدفئها وضيائها ... فالطبيعة فى « شنت »يقظة نشيطة ، لا تغفو لها عين ، ولا يسمع لها غطيط !

وكنت أجد نفسى دائما ــ مع اتساع الوقت أمامى ــ مشغولا ، فقد وضعت برنامجا مشحونا بمختلف الزيارات والنزه ، ول « شنت » ضواح غنية بالرائع من المشاهد ، من دور أثرية تحمل طابع القرون الوسطى، بزخارفها الدقيقة ، ورسومها الملونة الساذجة ، ومن مواقع فى الغابات مشهورة بمناظرها المبدعة ، ومن بحيرات مترامية الأطراف ، تقبع على قمم الجبال كأنها عيون نجل ترنو الى السماء !

كنت أترك الفندق صباحا ، ولا عمل لى غير التجوال ، أسير طويلا مخترقا الأحراج والغابات والوديان صعودا ونزولا ، فاذا ما تعبت أو ضجرت ، جلست واستغرقت فى تفكير هادىء ، والنسيم يهب عــلى وجهى محملا بشذا الحشائش الندية

وقد أقطع المسافات الشاسعة، فلا يقابلنى غير حطاب عريض المنكبين، صلب العود ، لا يستر جسده الا قميص مفتوح الصدر ، وسروال من

الجلد قصير ، يحمل على كتفه جذعا ضخما ... فيبتسم لى ، ويحييني تحية صافية أنيسة . وتعترضنى بين فترة وأخرى قطعان صغيرة من البقر ، تجلجل بأجراسها الضخمة ، وترتع فى الوديان مرحة ، تنعم بحرية لا ينعم بها الكثير منا ، نحن الآدميين ، فى عصرنا الحاضر !.. هذا البقر الجميل لا يرعى غير الحشائش المزهرة الفواحة ، فيحيلها الى لبن عطر شهى ، لا تجد ما يماثله فى غير هذا المكان ، اذ أن أزهار « شنت » الطبيعية تمتاز بنبل رائحتها من زمن قديم

واذا طالت غيبتى عن البـلدة ، وغافلتنى الشمس فتوارت خلف الجبال ، ورأيت نفسى شبه ضال فى ذلك المكان المنعزل ـ سرت خلف قطيع من هذه القطعان ، وأنا مطمئن مرتاح ، فأوصلتنى الى « شنت » أو الى قرية مجاورة لها . وكلما مررنا أمام دار ، شهدت بقرة قد تخلفت عنا ، وسارت الى البيت فى خطا وئيدة ، تجلجل بجرسها ذى الرنين الخاص ، تعلن لأصحابها خبر قدومها

*

وفى نهاية الطريق العام ، عند مدخل الغابة ، حيث تتفرع عدة طرق، تقوم ظلة صغيرة ضئيلة أخطأتها أول الأمر ، فحسبتها لعبة من اللعب، وعلقت عينى بشخص واقف بجوارها : فتاة تبلغ العاشرة ، لها شعر ذهبى ، وعينان زرقاوان صافيتان ، ساذجة الملابس نظيفتها . اقتربت منى فى خفة ، وعينها تبتسم، ثم قدمت لىصحبة ورد صغيرة من صندوق معلق على صدرها ، وهى تقول :

ألك فى مجموعة من زهور الجبل يا سيدى ؟.. رخيصة الثمن ، ثابتة الرائحة ، تعيش مدة طويلة

تناولت منها الصحبة ، وجعلت أتأملها . كانت صحبة صغيرة لا يتجاوز حجمها قبضة اليد ، جميلة التنسيق ، تحوى نخبة من زهور الجبل ، زهور فطرية المظهر ، لها عطر وادع منعش ، يدل على أصالة

ونبل ... شممت الصحبة وأنا مغتبط ، وقلت للفتاة :
أأنت التى تجمعين هذه الزهور ، وتؤلفين هذه الصحب ؟
ـ نعم يا سيدى . انى أقوم بهذا العمل منذ أعوام
ـ وحدك ؟
ـ باشراف أمى ...
ـ أمن سكان المنطقة أنتم ؟
ـ انها موطننا وموطن أجدادنا من قبل
ـ وأبوك ، ما صناعته ؟
ـ كان حطابا ولبانا ، فلما مات احتفظت أمى ببعض بقراته ...
وكانت تكلمنى فى لباقة ، وعينها الزرقاء الصافية تلمع ذكاء . وأعجبتنى خفة روحها ، وهدوء جمالها . والتفت الى ظلتها ، فقلت :
ان ظلتك تعجبنى يا فتاتى ...
ـ تعال لأريك اياها
ـ انها أصغر من أن تدعنى أدخلها
ـ كلا يا سيدى ، فكثيرا ما احتمى الناس فيها من المطر
وحنيت هامتى ، ودخلت الظلة ، فوجدتها كأنها حديقة مكتظة بالأزاهر ، تماثل الحدائق اليابانية المصغرة التى وصفها بعض الكتاب فى رحلاتهم الى بلاد الشمس المشرقة . وخرجت وأنا أقول :
كل هذا بديع ، أنت تعيشين كزهرة برية بين أخواتك الأزاهير !
ثم أخرجت من جيبى قطعة من النقود ، وناولتها اياها ثمنا للصحبة . فقالت :
ان ثمن الصحبة نصف هذا القدر !
ـ لا بأس ... لا بأس ...
وودعتها ملاطفا ، وسمعتها تقول وهى تداعب القطعة فى يدها :

اذا هطلت الأمطار ، أو اشتدت الرياح ، وأردت مأوى صالحا ، فهذه الظلة تحت تصرفك

ـ أشكر لك !

ـ اذا عدت تعبا حران فى يوم شديد القيظ ، فانك تجد فى الظلة ما تطلبه من ظل وماء

فقلت لها مبتسما ، وقد أعجبتني ذلاقة لسانها :

أشكر لك يا صغيرتى ، أشكر لك !

وسرت وأنا ممسك بصحبة الورد أشمها مسرورا . ولما عدت من نزهتى ، وضعتها فى زهرية على خوان الزينـة فى حجرتى ، مستمتعا برائحتها طول اليوم . . .

وفى غد خرجت الى نزهتى اليومية ، ولما مررت بظلة صديقتى بائعة الورد ، ألفيتها بجوارها ، تعد طاقات الزهر وترتبها فى الصندوق . فوقفت عندها ، وقلت :

أين صحبتك يا بنية ؟

ـ أترغب اليوم فى واحدة ؟

ـ طبعا ، سأضمها بجانب أختها ، لتزين لى حجرتى وتعطرها

ـ حسنا يا سيدى . . . انى أؤكد لك أن الصحبة اذا وجدت من يعتنى بها ، عاشت أشهرا لا أياما

وأخذت منها واحدة ، وكانت كصحبة أمس ، فى حجمها وتنسيقها، وألوان زهرها ، كأنهما توءمتان . . . وقلت لها :

أتبقى ظلتك مفتوحة طول العام ؟

ـ كلا يا سيدى ، بل فى أيام الموسم ، بضـعة أشهر فى الصيف ، وبضعة أسابيع فى الشتاء

ـ فى الشتاء ؟ . . ألا يغطى الثلج الجبل بأسره ؟

ـ ولكن هناك مناطق ينبت فيها الزهر وسط الثلج . ان من السائحين وهواة الرياضة من هو مفتون بزهور الثلج

ـ وهذه الظلة ؟

ـ انها تقاوم الثلوج والرياح مقاومة أشد الأمكنة وأصلبها

ـ وما رأيك فى الشتاء ؟

ـ الثلج أحب الى من خضرة الربيع ... الثلج بهجة ومرح ...

احزر : كم من الوقت يلزم لى لأقدم من منزلى الى هنا ؟

ـ وأين منزلكم ؟

ـ هناك ... انظر !

ـ انكم تسكنون قرية كيتان ... انها بعيدة ومرتفعة جدا أيتها الصغيرة !

ـ اننى أقدم منها فى مدة لا تتجاوز خمس دقائق !

ـ غير معقول !.. كيف ؟

ـ على عجلة الانزلاق ...

ـ بديع !

ـ أما فى الصيف ، فانى أقطع المسافة فى نصف ساعة

ـ هذا اذا التزمت الطرق غير المألوفة

ـ انى دائما أسلكها ، ولا أكاد أعرف سواها

ووقفت أتأملها ، وأصور لنفسى حياتها فى تلك القرية النائية المنعزلة ، مع بقراتها وأزهارها ... ثم أخرجت من جيبى قطعة النقود ، وأعطيتها اياها ، ومضيت فى طريقى ، وقد غمرتنى فلسفة جديدة ، فلسفة تأمل عميق . وبدأت أحس فى أعماق نفسى ضآلة تلك المظاهر الدنيوية التى تحيط بنا ...

ومرت الأيام ، وأنا أرى كل يوم صديقتى بائعة الورد ، فأشترى منها صحبة ، وأستمتع بحديث لطيف معها . ولكنى لاحظت أن الصحبة

بدأت تتضاءل فى حجمها يوما بعد يوم ، وان احتفظت دائما بعطرها النبيل ، وطابعها الساذج الممتاز . . .

وقالت لى الفتاة بعد أن حزرت ما يجول فى خاطرى عن صحبتها : ان الخريف يا سيدى على الأبواب ، وهو كما ترى قاس لا يرحم !

*

واضطررت أن أرحل عن قرية « شنت » الى « راداز » ، على أثر دعوة تلقيتها من بعض المصيفين من أقاربى هنالك . . . ومكثت معهم أسبوعين ، ثم عدت الى « شنت » وأنا أحس لها فى صميم قلبى حنينا غريبا . ودخلتها كما يدخل المغترب وطنه بعد غياب طويل . وأول شىء فكرت فيه : صديقتى بائعة الورد . فذهبت الى ظلتها لأبتاع صحبتى ، فوجدتها مقفلة . . . والتفت حولى ، فألفيت الغابة قد بدأت تكفهر وتتعرى ، والحقول أخذت تشحب وتصوح . واندفع الهواء البارد القاسى يلفح وجهى ، وكأنى أسمع منه همس السخرية . . .

وقصدت فندقى وأنا آسف مكتئب !

وعدت الى نزهاتى أقطع الوهاد والوديان وحيدا . . . لم يعد يقابلنى أصدقائى الحطابون يبتسمون لى ويحيوننى . . . واختفت قطعان البقر ، وصمتت أجراسها فى الحقول ، فلم يبق الا صفير الرياح ، تتجاوب أصداؤه على سفوح الجبال . . . وكنت أمر بـ « ظلة الورد » فأجدها دائما مغلقة ، وقد غطتها أوراق الشجر الذاوية ، فكأنها قبر مهمل مهجور !

وازدادت كآبتى ، فاعتزمت الرحيل . . .

وقبل سفرى بيوم ، خطر لى أن أتنزه جهة « كيتان » على الرغم من ارتفاعها وبعدها وانعزالها عن بقية القرى . . . وسلكت فى سيرى الطرق الصغيرة غير المألوفة ، وما ان دنوت من القرية ، حتى صادفت فتاتى « بائعة الورد » جالسة على جذع مقطوع ، ترقع ثوبا فى يدها

ولمحتني عن كثب ، فنهضت متهللة مرحبة بي ، فقلت لها وأنا أشد على يدها وأبتسم :

ما هذا الاختفاء يا صغيرتي ؟ لم يعد أحد يراك ؟

ـ وما ذنبي يا سيدي ؟.. ألا ترى فعل الخريف بنا ؟

ـ حقا انه قاس لا يرحم !

وجلست على الجذع بجانبها ، وأخذت أستمع الى حديثها عن حياة الخريف ، وعملها فى المنزل ، وحلبها للأبقار ، وما شابه ذلك ... حديث لطيف فطرى ، ملأ قلبي بهجة ونورا !

ولما تهيأت للعودة ، ألفيت يدى تخرج قطعة النقود من جيبي ، وتعطيها الصغيرة ، فأمسكت بها الفتاة متسائلة ، وقالت فى لهجة ساذجة:

ولكن ليس لدى يا سيدى صحبة أقدمها لك !

فانحنيت من فورى عليها ، وقطفت من خدها المورد المتفتح قبلة هادئة ، وقلت لها :

ان صحبة اليوم أشهى وأحلى من أية صحبة مضت ... انها لا تقدر بمال ...

وانحدرت فى طريقي الى الفندق ، وأنا أشعر بنشوة الربيع تستيقظ فى قرارة نفسى !

الباب المقفل

ذهبت اليه، وسألته أن يعطيها الكتاب الذى وعدها به ، فوقف هنيهة يفكر : أين وضعه ؟.. ثم غمغم :

لعله فى حجرة « البيان »

وتقدمها الى الحجرة ، فدخلاها ... الا أنها تنبهت الى شأن غير عادي بدر منه . لقد أقفل الباب بالمفتاح !

فتسارعت دقات قلبها ، واختلست اليه النظر ، فوجدته قد اتجه الى الخزانة ، واندفع يقلب محتوياتها

كيف اجترأ أن يقفل الباب بالمفتاح وهى معه ؟!.. من يظنها ؟!.. ورمته بنظرة حادة

وأبصرت خصلة من شعره الذهبى قد تهدلت على جبهته ... يالله ! لم تره على هذه الفتنة قبل الآن ... قامة مبسوطة ، ومنكبان عريضان، ووجه صبيح عليه طابع الرجولة الحق !

لم تره قبل فى هذه الفتنة ، على أنها نشأت معه فى منزل واحد، وكان يكبرها بعشر سنين ، فهو ينظر اليها نظرات الأخ الكبير الى أخته الصغرى ...

ووقع بصرها على خيالها فى المرآة ، فتذكرت معابثته اياها ، اذ كان يلقبها أحيانا بالضفدع ، لقصر قامتها !

ورفعت عينيها اليه ثانية

ها قد حبسها معه فى حجرة واحدة ، هذا الفتى المبسوط القامة ، العريض المنكبين !

انه يتظاهر بالبحث عن الكتاب ، ويطيل التقليب فيما بين يديه ، وقد يكون الكتاب المقصود على قيد أنملة منه . . .

ما أجهله بعقول الفتيات !

انه ما برح يتوهمها طفلة ، على حين أنها استقبلت منـذ أيام عامها السادس عشر

ولكن أية مفاجأة تلك التى يفكر فيها ؟

أهجوم مصحوب بقبلة حرى ؟

ان يدها على استعداد لدفع هذا الهجوم !

صفعة قوية تثيب اليه رشده . . .

وجعلت ترنو اليه ، وهو منهمك يبحث عن الكتاب ، وكان مرتديا منامة حريرية تتموج على جوانب جسمه الرياضى البديع ، الذى يحسده عليه أجمل كواكب « السينما » . . .

وأطالت النظر الى ساعديه القويين ، فاختلج جسمها بهزة كهربية !

لقد أنبها أخيرا لأمور تتعلق بسلوكها . . . أتكون الغيرة قد بدأت تتسلل الى قلبه ؟

هو قليل التحدث معها ، ولكنه كثير التفكير والسهوم . . . وهل تنسى يوم سارقها النظر ، فتضرج وجهها ، فغضب لافتضاح أمره ، ونهرها بشدة ؟

ما أشد كبرياءه ! . . ولكنها ستهزم اليوم هذه الكبرياء هزيمة ساحقة ! سيجثو تحت قدميها ، ويقول لها :

كم أحبك يا عصفورتى الصغيرة ...

فتجيبه ، وهى مهتاجة :

دعنى أخرج ... افتح لى الباب ...

ثم يمسك بيديها ، ويغمرهما بقبلاته ، وهو يكرر هذه الكلمة :

ارحمينى !.. ارحمينى !..

*

وأخيرا رفع رأسه عن كومة الكتب ، ثم التفت اليها ، فرآها تبتسم له ، فأجابها بابتسامة سانحة

تلك هى العاصفة توشك أن تهب .. فلتستعد لها !

انها لم تره على هذه الوسامة قط ...

أتراه يفكر فى حملها بين ذراعيه ، ثم يقفز بها من النافذة الى الحديقة، ثم يظل يعدو بها ؟..

قد يعقد الذعر لسانها ، فلا تستغيث ولا تتحرك ، فلا يفتأ يجرى ويجرى ، فاذا ما امتلكت نفسها ، واستعادت شجاعتها ، وأرادت أن تصيح ، أسكتها بقبلة طويلة !

لم يعد يبحث عن الكتاب ، انه فى تفكير شارد مضطرب ، يعد برنامج الهجوم !

أفلا تتقدم اليه من فورها ، وتباغته بقولها :

لقد كشفت عن خططك ... سأفسدها عليك ... افتح الباب ، ودعنى أخرج !

والتفت اليها فى هذه اللحظة ، ثم رأته يدنو منها ...

يا لله ! ما أشد خفقان قلبها ... انها تسبل جفنيها !..

وسمعته يقول :

هذا هو الكتاب

فرفعت اليه بصرها ، فاذا به يمد اليها يده بالكتاب الذى كان وعدها به ، وقد زوى ما بين حاجبيه ... فأخذته منه فى صمت !

وأبصرته يفتح الباب بالمفتاح ، وينفذ منه، وهو يصيح بالخادم ،قائلا: ألم آمرك غير مرة باصلاح هذا الباب ؟.. ان المرء ليضطر الى استعمال المفتاح ، كلما دخل أو خرج ، تفاديا من هذا التيار الشديد

ثم اختفى عجلا ...

ولبثت الفتاة طويلا تحدق فى الجهة التى اختفى منها ...

ثم وقع بصرها عفوا على الكتاب فى يدها ، فاندفعت الى النافذة ، وقذفت به ...

ثم ارتمت على المتكأ ، وانكبت على منديلها تمزقه بأسنانها !

فهرس

صفحة

شفاه غليظة
وقصص أخرى

فن القصص

فصول جامعة لدقائق الفن القصصي مذيلة بثلاث قصص



قصة الخير والشر في طبيعة البشر

أبو الهول يطير

مشاهدات وخواطر يسجلها سائح في العالم الجديد

سلوى

في مهب الريح

قصة مطولة تبسط حياة فتاة مرت بها
ضروب من تصاريف الزمن وأحكام القدر

